ميشال فريد غريّب

دَامُورْ

مَن أنت ؟

ميشال فريد غريّب

دامور مَن أنت ؟

دَامُور

مَن أنتِ؟

أو

مأسَاة الدّامُور

ميشال فريد غريّب

توطئة

«إن أردت أن تفهم معنى الصورة،

فدع الصورة تنطبع في قلبك».

[مثل صيني]

مقدمة

الدامور الجديدة

الدامور الجديدة، حُلم في رؤوس المخلصين من أبنائها وبناتها، أولئك الذين نشأوا في أحضانها واستظلّوا بمَبانيها الحجَرية المتينة. فانطبعَت في نفوسهم صورةُ القِباب الحمراء، وواجهاتها التي تلمع في الشمس، والجنائن الوارفة الظلال، وتلك البسائط الممتدّة التي حوّلَهَا أجدادنا إلى منتزهات يسرحون فيها قُبَيل الغروب، ليستمتعوا برؤية البحر المنبسط، أو ليحوّلوا أنظارهم إلى الجبال المُطِلّة عليهم من الشرق، فيستمدّوا منها عَزمًا ووَحيًا.

تلك صورةُ الحياة الدافقة، التي فَرَضها على أجدادنا حبُّهم للأرض، للسّهل الذي كان مصدر معاشهم، فالتزموا نَمطَ العيش الهادئ الذي وفّره لهم تراثٌ من الأخلاق، المرتكزة على الانضباط، والوئام واحترام حقوق الآخرين.

هذه البلدة المؤتلفة مع حاضرها، المطمئنّة إلى غَدِها، أصبحت هدَف المعتدين من غرباء ولبنانيين، انقضّوا عليها انقضاض الكواسِر، وفي طَرْفَة عَين حوّلوا قصورَها وأكواخها إلى رُكام.

صورة الخراب المفجِعَة حجبَت في أذهاننا الصورة الأولى المُشرِقة، لكنّها لم تقدر على مَحوِها.

الصورتان تتناوبان أو تتجاوران، تقابلهما صورة ثالثة هي مِن نَسْجِ خيالنا، لأنّ عودة المهجَّرين إلى ديارهم لم تُنتج منذ خمس سنوات سوى عدد من المنازل المتفرّقة، المبنية بالإسمنت الداكِن اللون، تتكدّس في طبقات هزيلة، تحاذي طرق المرور ولا تترك بينها مساحات تنمو فيها الجنائن والأشجار.

إنّ الدامور التي نحلُم بها هي غير هذه المجمَّعات المرتَجلة، على غير نظام. نريدها أبنيةً ذات تصاميم مدروسة، خاضعة لمتطلّبات الصحة والراحة العصرية، تعبّر عن روح

وطنية جديدة. روح المسؤولية التي يجب أن تميّز الجيل الطالع، وتشمل كل أبناء لبنان الجديد، لا أبناء الدامور فحسْب.

جيلٌ جديد، يتعلّم من الماضي دروسًا مفيدة. يأخذ عن الأسلاف حبَّ الأرض وحبَّ السلام، وعن أبناء «عصر التنوير» الرغبة في التجدُّد الفكري، الذي ينقذنا من عبوديّات الماضي. تلك التي ساهمت في إيصالنا إلى ما نحن فيه.

إن صاحب كتاب «دامور مَن أنت؟» يبذل جهودًا مخلصة في نبش الماضي، يتوسَّع في عَرض تاريخ البلدة التي «انطبعت صورتها في قلبه»، واصفًا ما عانَتهُ من نكبات، ناجمة عن مركزها التاريخي وموقعها الاستراتيجي. فهي بنتُ النهر الحامل اسم أحد الآلهة التي عبدها الفينيقيون: «دامور المُحيي المدمِّر»، وهي مفتاح بيروت، ومعبَر الفاتحين، القاصِدين العاصمة شمالاً، والنازحين عنها جَنوبًا.

على أن الإقطاعيات والعبوديات التي استبدَّت بأجدادنا طَوال عصور مضت، أخذت في الانحسار، منذ بزوغ فجر الحرية والاستقلال والديموقراطية، وسائر الأيديولوجيات التي ترعاها منظَّمة الأمم المتحدة وتسعى لنشرها في جميع أقطار العالم.

وإن بلدتنا المنفتحة على التيّارات الفكرية الحديثة، منذ فجر النهضة، لا تعدَم القيادات التي تؤمِن بانتصار تلك المبادئ واستعداد الداموريين لاعتناقها، في عصر يشجّع التقارُب والتعاون بين الشعوب، ويُطلق دعوة السِّلم العالمي.

لكن تحقيق هذا الهَدف يحتم علينا مواصلة الكفاح الذي عاناهُ أولئك الأجداد، لتذليل العَقبات التي اعترضتهم، والتي نواجِه ما يشبهها أو يُخالفها، في مسيرتنا نحوَ مستقبلٍ أفضل.

كفاح الذات القديمة المتحجّرة. وبناء الذات الجديدة المتطوّرة.

بناء الدامور الجديدة، في لبنان الجديد.

١٥ حزيران ٢٠٠٠

روز غريّب

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،
تـارةً آمـنـة وطورًا مخيفـة؟»

من أين أتاني هذا البيت؟ لقد علق في ذهني ولم أعد أعرف مصدره. موجة من الماضي قذفته إلى ذاكرتي وأنا في طريقي إليه. لقد أكدوا لي أنه لجأ إلى الجنوب واني سأجده هناك بالقرب من صيدا إذا كان لا يزال في قيد الحياة. أخذت أعدّ الأسئلة التي أنوي طرحها عليه. الطريق من الدامور إلى الجنوب أصبحت سالكة، أما طريق المعرفة فمحفوفة بالأخطار. الأسئلة كثيرة، كثيرة وهي تزدحم بغير نظام فلا أعرف من أين أبدأ. ازدحام ثم عرقلة. مثل أزمة السير التي نعانيها الآن على الطريق الضيِّق ما بين السعديات والجيه. عندما احترقت سيارتي مع العشرات من أخواتها يوم الاقتحام ظننت أنّ السير على طرقات لبنان بعد الحوادث سيصبح متعة. حسبت أنّ الحسنة الوحيدة التي ستجنيها البلاد من جنون الحرق سيكون القضاء على أزمة السير وإراحة أعصاب لبنان. حساباتي دائمًا خاطئة. عاد الازدحام وعاد السير يتعرقل وعادت الأزمة أشدّ ممّا كانت عليه. كذلك الأسئلة المتراكمة في ذاكرتي... من أين نبدأ؟ لم نعد نتمكن من التقدم فشخة، لا بد من تنظيم. لا بد من ضوء أحمر وأخضر داخل الدماغ. كبستُ على الأخضر وإذا بالسؤال – الشاحنة يتقدم حاجبًا كل ما وراءه: هل عرفتها؟ هل عرفت الدامور حق المعرفة. لقد رسموا لك عن وطنك صورًا خيالية، صورًا خلابة ربما، لكنّها وهميّة وما ان صدمها الواقع حتى سحقها وسحقنا. ثقافتنا زيف بزيف. لو كان لها جذور تمتد إلى أعماق تربتنا حيث هويتنا مدفونة مع الماضي المجهول لانتصب شبابنا كلهم، مسيحيون ومسلمون، لانتصبوا سدًّا منيعًا في وجه الإعصار الانتحاري...

«الطريقُ، الطريقُ، يا ألفَ نحسٍ،
تـارةً آمـنـة وطورًا مخيفـة؟»

الطريق إلى الدامور، أم الطريق إلى معرفة الدامور؟ من يا ترى قال هذا البيت ولماذا يتردّد صداه في حافظتي مع أزيز الرصاص ودوي المدافع؟

– إلى الدامور! إلى الدامور!

من كل الجهات يتنادون ويتألّبون لتطويقنا. من أقصى الجنوب، من أعالي الشوف، من القرى المجاورة، من المخيّمات الفلسطينية وربما من وراء البحار، كلهم يزحفون لاقتحام الدامور.

– إلى الدامور!

هذا النداء أصبح شعار التحالف اليساري وعربون التلاحم مع الثورة الفلسطينية. حتى الذين كانوا يرتزقون من خيراتها أتوها شاهرين السلاح وقطعوا عنها الماء والغذاء.

– إلى الباستيل! إلى الباستيل!

هتفت الجماهير عند اندلاع الثورة الفرنسية وأخذت تجوب شوارع باريس حاملة على رؤوس الحراب رؤوس الأرستقراطيين. ولكن نحن لسنا بأرستقراطيي لبنان والدامور ليست سجنًا لأحد. قلعة الباستيل كانت بنظر الثورة رمز تعسّف الحكام واستبدادهم، كانت تجسيدًا حيًا لكل ما كدّس النظام من مظالم عبر العصور. أما الدامور فإلى مَ ترمز؟ أهي معقل الرجعية وحصن الإقطاعية؟

– الطريق! الطريق! يا أنجاس! لماذا قطعتم الطريق؟

– قطع الطريق، يا أخي، ربما له مبرّرات، أتريدون أن نبحثها بموضوعية؟

– لا! خبزكم حرام، يا بورجوازيين، يا أردياء. إلى الدامور!

– يا أخي لسنا بأردياء. نحن مثلكم: فينا البورجوازي الكبير والصغير وفينا الكادح. الأكثرية من البورجوازيين الصغار والكادحين مثلكم. ماؤنا من «نبع الحلال»[1] وخبزنا من عرق جبيننا وجبين أجدادنا. بورجوازيتنا حصيلة التاريخ وليست بجريمة شائنة. قادة الثورات في العالم كانوا بورجوازيين. كل الثورات تحالفت عند اندلاعها مع صغار البورجوازيين، الدامور تكره الإقطاعية وتمقت الرجعية. أنسيتم أنها وطن نسيب المتني وأسبر الغريب وأمين الغريب وسعيد فاضل عقل ووديع فاضل عقل. إن كان هؤلاء رجعيين فاشرحوا لنا بربّكم معنى التقدمية. إشرحوا كي نرتدّ إلى الهدى. ذكريات

١) «نبع الحلال» هو بالفعل إسم النبع الذي جرّ منه الخوري بولس الغريّب مياه الشفة إلى الدامور.

وأسئلة تزدحم في خاطري وأنا في طريقي إلى الجنوب لعلّي أحظى بكشف الغطاء عن ملفّ الدامور.

*

التقيته في رواق أحد الأديرة حيث لجأت «شلعة» من القطيع المشرَّد. هذا الشيخ يشاع عنه أنه مرجع ثقة لمن أراد البحث في تاريخ الدامور، لكنّه غريب الأطوار: فهو مثقّف ضالع في آداب الغرب والشرق لكنّه أصبح يزدري بالمثقّفين ويفضّل الخبل على الذكاء؛ وهو وطني صادق لكنه يسخر من أمجاد وطنه المزعومة. كان ثريًا ومتدينًا فأصبح على الحضيض وصار فعل إيمانه محصورًا بكأس العرق. كان شيخًا جليلاً ورب عائلة محترمة أما الآن فلم يبقَ عليه من جلال الشيخوخة سوى لحيته البيضاء الكثيفة. ثيابه رثّة، وجهه شاحب، كئيب، يداه ورجلاه ترتجف باستمرار وصوته أشبه بالحشرجة. عساه لا يزال متمتعًا بقواه العقلية. عرفته على نفسي وكشفت له عن مقصدي، فبادرني بالقول:

– لماذا الكلام على الماضي؟ نحن الآن بأمسّ حاجة إلى النسيان، يا بني، إن أردت إشباع فضولك فعليك بمطالعة الصحف والمجلات وكتب التاريخ.

– لقد طالعت الكثير منها، فلم أجد شيئًا يذكر عن الدامور.

– سعيدة البلدة التي لا تاريخ لها، يا بني، وسعيد الإنسان الذي ينساه الناس! مالنا وللماضي؟ نحن بحاجة إلى التخدير. البنج أعظم اختراع استنبطه دكاترة السياسة. ألست من رأيي؟ إنشاء الله يكون في جيبك «شي بطحة عرق».

– آسف! ليس في جيبي إلا أسئلة.

– داموري بدون «بطحة عرق»، داموري مزيّف!

– أنا، يا شيخي، داموري قحّ مثلك ومثلك مهجّر ومنكوب: لقد أحرقوا بيتي ومكتبتي وسيارتي وكلبتي الصغيرة واستولوا على ممتلكاتي وشرّدوني في وطني، لكني أرفض التخدير. أريد أن أفهم، لا أريد أن أنسى. أريد أن أعرف لماذا قتلوا موسى عون وعائلته ولماذا داسوا على جثة ميشال غريّب بعد أن أعدموه؟ لماذا قضوا على أوجيني المتني وأحرقوا أختها الضريرة وهي طريحة الفراش. أريد أن أعرف لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحاله وجزين ودير القمر وزحله وغيرها. أريد أن أعرف لماذا

انصب السخط على هذه البلدة ولماذا اختاروها لتكون كبش المحرقة. أريد أن أعرف برَقَبَة مَن دم الأبرياء...

أسئلتي هذه أثارت فيه ذكريات مفجعة، فأخذ ينتحب ويفرك يديه الفارغتين كطفل انتزعوا منه الشيء الوحيد الذي كان يتمسك به.

– لماذا لا تسألني عن أولادي؟ أولادي الثلاثة قُتِلوا، قتلوهم بسبب لحيتهم. ظنّوا أنّهم من المحاربين فأعدموهم بسبب لحيتهم. لم يبقَ لي معيل. لم يبقَ لي أحد. لم يبقَ لي سوى البكاء. دعني أنسى.

– ولكن يا شيخي، هؤلاء أحفادك يحيطون بك. أحفادك لا يزالون أحياء وسيعودون يومًا إلى الدامور. سيعمرون الدامور، فلا تبخل عليهم ببطاقة هوية.

– هوية! من يعرف هويته في هذا البلد المجنون؟ لو اتفق اللبنانيون على هويتهم، لما حدثت الكارثة.

– أليس للدامور تاريخ، يا شيخي؟ أليس لها حسب ونسب؟

– تاريخ! تاريخ على قبر الدامور... على قبر أولادي. أتريد أن أنظم لك بيت شعر يَصلُح تاريخًا لدمار الدامور؟

– لا. أريد أن أكتب لأحفادك ولأحفاد أحفادك عن هوية بلدتهم: من أين أتت وكيف ترعرعت وهل استحقت العقاب الصارم الذي أنزلوه بها. أريد أن أسمع من فمك شهادة رجل غير منحاز في هذا العصر الذي أصبح فيه الالتزام والانحياز فضيلة الفضائل.

– دعني أبكي: هذا كل ما أستطيع أن أفعل.

– في كثرة البكاء إساءة إلى الشهداء، يا شيخي. أنت تعلم مثلي أنّ لموتانا دَينًا علينا... دَين مقدّس، وهو أن نتابع مسيرتهم وأن نتمّم مشيئتهم كما لو كانوا معنا حاضرين.

– كما لو كانوا حاضرين... بل قل انهم معنا حاضرون... نعم، حاضرون هنا بين هذا القطيع المشرد. لكن حضورهم صامت.. صامت إلى الأبد...

– أجل... إنما حضورهم الآن وهنا يطرح علينا، نحن الأحياء، أسئلة مُلحَّة. أتضنُّ

عليهم بجواب؟

عَمدَ الشيخ برهة إلى الصمت والتفكير، ثم قال وكأنّه يستفيق من حلم مزعج:

– لقد غلبتني، سل ما شئت، سأبوح لك ولهم بكل مكنوناتي.

– سمعت صوت الدامور، وأنا في طريقي إليك، سمعته يقول: «لقد أفرَغوني من معناي»... فهل كان لهذه البلدة معنى خاص؟ أريد أن أكتب لأحفادك عن معنى الدامور...

* *

الدامور في العصور القديمة

– كيف أتت إلى حيِّز الوجود؟

– مثلما خرجت «أثينا» من دماغ «جوپيتار»، هكذا أتت الدامور إلى الوجود. إنها وليدة فكرة، أتعرف أسطورة إلاهة أثينا. تقول الحكاية ان «جوپيتار» أصيب يومًا بصداع موؤلم عجز عن شفائه أطباء «الأولمپ». فقصد أخاه «بركان»، إله الحدادين، وشكا له عن حاله، فقال بركان: «دواك عندي!» وضربه بالمطرقة على رأسه، ففجّه شقّتين وإذا بأثينا، إلاهة الحكمة، ذات العينين الصافيتين، تخرج من دماغ جوپيتار وبيدها الرمح والترس. فشفي جوپيتار للحال.

– من لنا بِمطرقة بركان يشفي هذا البلد من صداعه المزمن!

– أتكون من دعاة التقسيم؟

– لا، لكني أتمنى أن يسفر الألم عن ولادة الحكمة. تقول إذن ان الدامور خرجت من دماغ أحد الالهة؟

– نعم، إنما خرجت وبيدها غصن زيتون وهذا أول خطأ.

– خطأ؟

– نعم، خطأ... على الحكمة في هذه الدنيا أن تكون مسلَّحة، لو حملت الدامور منذ مجيئها سيفًا وترسًا مثل أثينا لاحترمها المحاربون وتجنّبوا معاداتها. كم مرة صحنا: نحن قوم مسالمون لا نريد الحرب، لكن الحرب كانت دائمًا تدخل علينا دون استئذان وتطردنا من بيوتنا دون رحمة.

– ومَن هو الإله الذي حملنا في دماغه تسعة أشهر. إنك تثير فضولي.

– الحق يقال انه ليس إلهًا، إنه على صورة لبنان: قزم له طموح مارد، إنسان مهدّد بالموت في كل لحظة لكنّه يحلم بالألوهية وعيناه شاخصتان إلى ما وراء البحار.

– لعلّك تعني الأمير فخر الدين الكبير.

– هو هو. لقد حزرت.

– ولكن قرأت في بعض الكتب أنّ «دامور» لفظة فينيقية أو سريانية.

– نعم. لقد ذهب المفسّرون في لفظة دامور شتى المذاهب:

* منهم من زعم انها لفظة سريانية تعني العجب[٢]

* ومنهم من ظنّ أنّها بابلية وأنها مركبة من حرف الدال الذي يستعمل للدلالة أو للنسبة أو للتشبيه ثم «أمورو» وهو عندهم إله الحرب والعواصف[٣] وأنت تعلم أن البابليين غزوا بلاد الشام وفلسطين وفي سنة ٥٧٣ ق.م. أخضع ملكهم بختنصَّر مملكة صور. إذن لا بد أن يكونوا مرّوا بنا ومن المحتمل أن يكونوا جعلوا من الدامور قاعدة استراتيجية لغزواتهم نحو الجنوب.

* ومنهم من قال انها لفظة عربية مشتقة من فعل «دمرهم دمارًا أي أهلكهم وهدمهم، أو، دمر عليهم دمورًا أي دخل بغير إذن وهجم هجوم الشر»[٤]

* ومنهم من قال: بل هي فرنسية أطلقها الصليبيون على النهر الذي كانوا يستعملون مصبه مرفأ لمراكبهم فأسموه نهر الحب Fleuve d'Amour.

* ويزعم الأب مرتين اليسوعي في وصفه لديانة الفينيقيين أن دامور أو داموراس هو أحد الأقانيم الثلاثة الذي كان يعبده الصيدونيون ويرون فيه رمزًا للزمن الأزلي والديمومة، مثل الإله «خلد» أو «كرونوس» وهو مثلهم من أولاد أورانوس، رب السماء وقد ورد في الدليل الأزرق[٥] عن لبنان أن داموراس هو أبو ملقرت، بعل صور، الإله الذي يحيي النبات ويمنح الخصب ويحفظ لصور سيادة البحار. وقد حرَّف الإغريق هذا الإسم فجعلوه «تاميراس»[٦] وحاكوا له أسطورة طريفة.

---

٢) الشدياق وغيره.

٣) مع العلم أنّ الأموريين هم قبائل سامية انتشرت بين شمال سوريا وتدمر والعراق نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد أسسوا في بابل أول سلالة أشهر ملوكها حمورابي. وكان العبرانيون يطلقون اسم «أموري» على جميع الغرباء. وقد كشفت مراسلات تل العمارنة ان الأموريين حكموا على معظم المدن اللبنانية والسورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

٤) محيط المحيط.

٥) Le guide bleu.

٦) فولني «رحلة إلى الشرق» ، Volney (Voyage en Orient).

– وأنت، يا شيخي، ما هو رأيك في الموضوع؟

– أنا لي في الموضوع رأي خاص سأطلعك عليه إن دفعت الثمن.

– وما هو الثمن؟

– الثمن سأطلعك عليه في حينه، ومهما كان الأمر فقد كتب للدامور أن يكتنف الغموض واللبس كل مشاكلها وحتى اسمها، أهو شرقي أم غربي؟ فينيقي أم عربي أم فرنجي؟ من يعلم؟

– ولكن يبدو لي أنك تناقض نفسك بنفسك. لقد صرّحت بادئ ذي بدء أن الدامور أتت إلى الوجود على عهد فخر الدين وأنها خرجت من دماغه ثم قلت في تفسيرك أن أصل اللفظة سرياني أو فينيقي أو بابلي وهذا يعني أن الكلمة كانت شائعة قبل عهد المعنيين بمئات السنين. في البدء كانت الكلمة، أليس كذلك؟

– في البدء كانت الأنهار، يا بني.

*

تعال معي لنتجوّل برهة على الساحل الشوفي قبل قدوم المعنيين. ماذا نرى؟ هذه الأكمة التي تربض عليها الدامور الآن كانت في العصور القديمة تغشاها أشجار السنديان والصنوبر والخروب... كانت غابة، غابة كثيفة وكان الشوف كله غابات[٧] أتذكر تلك السنديانة الجبارة المنتصبة أمام دار بلدية الدامور تتحدى الزمن وتقلّباته وتشمخ إلى السماء؟

– ومن لا يذكرها؟

– هذه الجبارة التي لم تستطع العواصف ولا الحروب أن تقضي عليها لشدة تكمُّشها بالأرض، هي من بقايا العصور الغابرة وضخامة جذعها أصدق شاهد على صحة ما أقول. والآن دعنا نعود إلى نزهتنا عبر الزمن. فلنتوغل بين تلك الأشجار العاتية ولننصت إلى هدير الغابة وهي تموج وتئن تحت هجمة الرياح. ألا نشعر أمام جلال الطبيعة بشيء من الرهبة والخشوع كأنّنا ماثلون أمام حضرة الاهية؟ ان الغابات أفضل

---

٧) على زمن أجدادنا كانت الغابات تغطي ٢٠٪ من مساحة لبنان أما اليوم فهبط المعدّل إلى ٦ أو ٧٪ فقط. (من حديث مع وزير البيئة في مجلّة ماغازين عدد ٢٩/٦/٩١)

مكان للعبادة. أنظر! على قمة هذه الرابية المشرفة على النهر من جهة الشمال، هناك يقوم هيكل فينيقي. فلنقترب ونسمع ما يقوله هذا الكاهن الصيدوني في صلاته!

*

«يا ملك النار ومبدأ العالم، أيها المنظِّم الأزلي لحياة البشر، أنت الذي تدور جميع الأقطاب بقرصك المحرق وترجع في دائرة الاثني عشر شهرًا، فمن عجلتك ينزل العمر ويقبل الشباب والشيخوخة معًا، أعرني أذنًا صاغية! بدد بفضل حقيقتك ظلام هذا الليل الطويل. فلتبشرنا بالضياء رؤوس خيلك الجامحة من ضرب سوطك. إن مرجة السماء، بعد أن تكون سوداء قبل إشراقِ نورك، تترصع عند قدومك باللؤلؤ والزمرد واليَشْب(٨) وإذا تبللتَ بمياه بحارنا الحبيبة، نفضتَ أعراف خيلك ونشرتَ على أرضنا المخصبة شراب الندى المنعش... الى هيكلك المعطر يأتي فينيق ودامور، فينيق المجنّح الذي يأتي بعد آلاف السنين منعتقًا من شيخوخته فيجدد شبابه ويولّد نفسه بنفسه، ودامور، ابن أوران، الإله الذي يحيي ويميت، يعمر ويدمر ويتخذ من اللهيب حياة جديدة...»[٩]

– أسمعت؟

– نعم، سمعته يقول: دامور.

– «الإله الذي يحيي ويميت، يعمر ويدمر، ويتخذ من اللهيب حياة جديدة».

– ومن أي خيال خرج هذا الإله الغريب العجيب؟ أمن مخيلة أهل صيدا؟

– إعلم، يا بني، أنه في ديانة الفينيقيين عامة كان للتثليث أهمية كبرى[١٠] في جبيل كانوا يعبدون إيل أي الإله الأول الكلي القدرة وعو لم أي العالي إله السماء الأزلي وتموز أو أدونيس، الصياد الجميل الذي يبعث العشق وحرقة الغرام حتى في قلوب الالهات.

---

٨) اليَشَب: حجر كريم يشبه الزمرُّد.

٩) عن ديانة الفينيقيين للأب مرتين اليسوعي، بتصرف.

١٠) قال المسيو دكس، أحد علماء الآثار: «تمكنت أن ألاحظ في الأبنية التي هي أكثر قدامة عند الفينيقيين أن عدد الثلاثة الآخذ أصله بلا شك عن تصوّر ديني هو محفوظ في كامل أمورهم. فهم يبنون مثلاً ثلاث صاعات أو صاعة كبيرة منقسمة إلى ثلاث دوائر وفي زخارفهم يصنعون ثلاثة نقوش أو نقشًا مثلثًا ويصوّرون على عمد النذور ثلاث أصابع أو ثلاثة احاد مجتمعة من أسفل ويكررون هذه الثلاثة الاحاد ثلاث مرات»..

وفي صور كانوا يعبدون بعل وملقرت وهركل[١١] أما صيدون فثالوثها المقدس يتألف من كنع وفينيق ودامور. ويرى الباحثون في هذا التثليث «انعكاسًا تاريخيًا» لحياة الأمة فكنع يشير إلى كنعان، العنصر الأصلي للذين استوطنوا في تلك المنطقة، وفينيق يدل على العنصر الفينيقي.

– ودامور؟ لم يقل لنا الكاهن شيئًا عن أصل هذا الإله الذي يدمر ويعمر...

– نعم، يبقى هذا اللغز، يبقى دامور معلَّقًا يكتنفه الغموض... لكن التاريخ والجغرافيا سيلقيان بعض النور على ظلمات الماضي وقد يكشفان لي ولك عن معنى هذه الكلمة المحيرة.

فلنراقب قليلاً سلوك هذا الكاهن. لقد غادر الهيكل وأقفل راجعًا إلى بلده صيدون بعد أن أتم صلاته وأحرق البخور على مذبح الإله المثلث الوجوه. لقد انحدر من الرابية إلى أسفل الوادي متجهًا نحو الجنوب الغربي وأخذ يشق طريقه نحو النهر عبر الصخور المكسَّرة بالقندول والوزال والزنبق البري. ها هو يتوقف فجأة وينحني باحترام ثم يجثو راكعًا على ضفة النهر، أنظر! إنه يمد يديه نحو الماء وهو يتمتم كلمات غير مفهومة. أمامه تندفع المياه بسرعة وهي ترغي وتزبد كأنها شديدة اللهفة لمعانقة أمواج البحر الفينيقي، هذا النهر هو الحد الفاصل ما بين مملكتي صور وصيدا من جهة وبيروت وجبيل من جهة أخرى. سكان صور وصيدا وسكان الساحل الممتد من نهر الدامور إلى جبيل هم بأكثريتهم الساحقة فينيقيون. اما القسم الشمالي فيتواجد فيه كثير من الآراميين النازحين من سوريا إلى سهل البقاع...

هذا النهر له أهمية كبرى بالنسبة لسكان السواحل الفينيقية. فهو يفصل ويحمي. إنه يجسد «الأمر الإلهي» الذي يقسم الممالك ويحمي ظهر صيدون من غزوات الشمال. أنظر! لقد بدأ الربيع يتجلّى في تدفق الماء، بدأت الثلوج تذوب على قمم لبنان وبدأت الأنهار تستعد لبعث الخصب في عروق الكائنات. هذه المياه الثائرة بيدها الموت والحياة والانحلال والتجدد. «حذار! يقول هزيود، إياك أن تجتاز نهرًا بدون أن تتبارك بمياهه وتوجه إليه صلاة شكر!»

---

١١) بعل، أي السيد أو الرب. وملقرت ملك المدينة المحصنة. أما هركل فهو الإله التاجر الدوار وبذات الوقت الفاتح المحارب. وملقرت هو أيضًا زوج عشتروت ووالد أشمون: المثلث الأقدس الذي حلف هنيبعل اليمين أمامه سنة ٢١٥ ق.م.).

– ألهذا السبب ركع الكاهن الفينيقي على ضفة النهر؟

– نعم، ركع ليتبارك بمياه دامور بعد أن زار الهيكل المكرّس له على رأس الرابية. فدامور أو داموراس أو تاميراس هو بالأصل هذا الإله المنحدر بقوة من قمم الشوف. لكن لهذا الإله مزاج خاص بين سائر الآلهة فهو شرس لطيف، مخرّب معمِّر، موذ مفيد. كثيرًا ما يثور على ذاته فيجن جنونه ويحمل بعنف على الحواجز التي تحد من حرية وثبته، فيحطمها ويجرفها ويثور على ضيق مجراه فيرفض التقيد به ويزحف بمياهه على السهول المجاورة فيغرقها ويجعلها بحيرة موحلة، ثم تهدأ أعصابه ويعود إلى صوابه مرتضيًا بما رسمته له الطبيعة فيسحب جيشه من الأرض المحتلة ولا يترك فيها من آثار ثورته سوى رمال مخصبة تحوّل قحلها إلى مرجة خضراء.

– إذن قد استمد اسمه من نزعته الشريرة إلى التدمير والتخريب.

– مهلاً! لقد سبق وقلت لك ان لي في الموضوع رأيا خاصا. أنت تعرف أن تاريخ البلدان وحضارتها يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بوضعها الجغرافي.

– حتمًا، لكنني لا أرى في وضع الدامور علامة مميزة.

– وأنا أقول لك أن كل ما عانت الدامور من عذاب ودمار كان مكتوبًا لها من قبل أن تخلق وذلك بحكم وضعها الجغرافي.

*

وفيما نحن نتأهب للغوص في الأوضاع الجغرافية أخذ وضعنا الأمني بالتدهور.

فجأة توتر الجو في المنطقة وسمعنا صوت الرصاص يلعلع بالقرب منا وما هي إلا دقائق حتى سيطر الذعر على القطيع الداموري المشرد وبدأت النساء والأطفال تتراكض نحو الطابق السفلي. توجهت أنا أيضًا نحو الباب وهممت بالنزول، فانتهرني شيخي قائلاً:

– أتخاف الموت؟

– طبعًا. وأنت؟

– إن كنت تخاف، فابق محلّك! الموت صياد يحب مطاردة الهاربين. إسمع! في سنة ١٩٤١، أثناء قصف جوي على بيروت، نزل عمي وأولاده من الطابق الرابع حيث

كان مسكنهم واختبأوا في الملجأ. أما عمتي فكانت منهمكة بتحضير طعام الغداء وأبت أن تغادر مطبخها وقِدْرَها مفضلة أن تخاطر بحياتها على أن «تتشوشط» الطبخة. بالنتيجة سقطت إحدى القذائف على الملجأ ودمّرته فقتل عمي وجرح أولاده الأربعة، أما عمتي فلم تصب بأذى...

لم ينته من كلامه حتى أخذت القذائف تنهال حوالي الدير وسمعنا صرخات استغاثة تأتي من الخارج من جهة الطريق، فامتقع لون الشيخ واشتدت الرجفة على يديه ورجليه، فقال بصوت خافت:

– الأحسن أن ننزل إلى الملجأ. ظننت أنها مباراة حبية ولكن يبدو لي...

فقاطعته وقلت شامتًا:

– وأنا يبدو لي أنك أنت أيضًا تخاف الموت؟

– أخاف، نعم، أخاف. لا أخاف الموت لكوني قد شبعت من عمري، لكن أخاف أن أدفن في تربة غير تربة الدامور. بربك قل لي، هل قضوا على السنديانة في ساحة البلدية؟ ألم تمرّ بها؟

– لا. لا أعرف عنها شيئًا. لم أمر من هناك.

– لقد كلفت صاحبنا ن. ع. أن يستخبر عن السنديانة وهو في طريقه إلى بيروت. نفسي تحدثني بأني لن أرجع إلى الدامور إذا كانوا حرقوا السنديانة... لماذا؟ لا أدري. لقد خلق فيّ اليأس حسًا سادسًا. وهذا الحس ينبئني بأنّي لن أدفن في تربة الدامور، إذا قضوا على تلك الشجرة التي تجسّد بشموخها ديمومة الدامور. إنني أتقبل المصائب كلها بصدر رحب. لكني أرفض أن أدفن في أرض غريبة. أليس من حقوق الإنسان أن يرقد بسلام في التربة التي تضم رفات أجداده! يحاولون إعطاء هذه المجزرة القذرة مبررات عقائدية. وهل من عقيدة تبرر حرماننا دفن موتانا في أرض آبائنا وأجدادنا؟

– وما هي المبرّرات إذن، يا شيخي؟

حاول التهرب من الجواب وأخذ يتمتم مخاطبًا نفسه: «جريمة في عقر دارنا، جريمة الجرائم داخل العصفورية أمام أعين المجانين. نحن الشهود ولا شهود غيرنا. شهود مجانين على جريمة الجنون. المجنون غير مسؤول. أنشهد بالزور؟ أنتحصن بالصمت؟ إذا

أدخلناهم في عصفوريتنا، ربما أدخلونا عصفوريتهم»...

صحت متوسلاً:

– ما هي المبررات إذن، يا شيخي؟ ما هي المبررات؟

دقيقة صمت وبعدها جواب زاد في حيرتي: ينادون بالثورة ويرسمون استراتيجية السلب والنهب. ينظّمون جداول بأسماء الأغنياء. يقولون: هؤلاء الذين تناقلوا الثروات الضخمة أبًا عن جَد لم يكونوا سوى مُرابين محتالين فالثروات الضخمة لا تجيء إلا بالعنف أو بالحيلة... يا مصّاصي دماء الشعب، من أين لكم هذا؟ نحن أحق منكم. نحن الآن أصبحنا أقوياء. نحن أحقّ لأنّ الحق للقوة. الحق عبر الزمن ليس إلا تكريس واقع خلقته القوة. أعطونا أموالكم واذهبوا إلى الجحيم. جاء دورنا لنحمل اللعنة التي حملتموها. جاء دورنا لنواجه ثوّار الغد.

– الأفضل، يا بني، أن لا تزج بأنفك في أسرار الالهة. أسرار الالهة تنبعث منها روائح كريهة لا يتحملها أنف رجل عادي مثلي ومثلك.

*

بعد نحو نصف ساعة من التراشق العنيف بشتى أنواع القذائف، توقف القصف. انتهى كما ابتدأ لأسباب لا يعلمها إلا اللّه والمتآمرون على أمننا. وقد أسفرت المباراة عن إصابة شاب كان يتنزّه على طريق الدير، أصابته شظية في ساقه فحملوه إلى المستشفى حيث بترت ساقه. واحد بعد المئتي ألف... ضحية بريئة تضاف إلى المئتي ألف التي أعلنتها الإحصاءات الرسمية، والحرب مستمرة بضراوة والمتصارعون يعلمون حق العلم بأن المباراة ستنتهي مثلما انتهت كل الحروب الأهلية في لبنان «لا غالب ولا مغلوب». عادت كلمة الشيخ ترنّ في أذني: «أأنت تصدق نفاقهم عندما يحاولون إعطاء الاقتتال مبررات عقائدية؟»).

ما هي المبررات إذن؟ هذا السؤال الخطير لا بد من طرحه.

سؤال محرج مقلق لكني أؤثر تركه إلى حين أستكمل معلوماتي عن الدامور. ومن يدري؟ ربما أتاني الجواب عن طريق الدامور. هل سقوط الدامور كان نتيجة مؤامرة؟ لم يعد بإمكاني تحويل فكري عن هذا السؤال الكبير، وإذا بصوت الشيخ يكرّر:

– ألا تسمع أصوات استغاثة؟ ألا تسمع صوت...؟

– لقد عاد الهدوء الآن، يا شيخي. أثناء القصف سمعنا صرخة استغاثة. وقد تولى الصليب الأحمر نقل الجريح إلى المستشفى، والآن قد عاد الهدوء فلنرجع إلى موضوعنا.

– عن أي شيء كنا نتحدث؟ إني لا أزال أسمع صرخات استغاثة.

– كنا نتحدث عن وضع الدامور الجغرافي.

– ربما... أرجوك أن تعذرني. لم أعد أذكر شيئًا. أنا مريض. مريض ومرهق. معي نشاف بالعروق. وهذا طبيعي بالنسبة لعمري.

– كيف يمكنني إسعافك؟ أتريد كوبًا من الماء؟

لاحظت أن الشيخ في حالة اضطراب شديد وأنّه لم يعد يقوى على الوقوف. النور الذي كان يتدفّق من عينيه وهو يحدثني عن الدامور قد جفّ. وصار جسمه كله يرتعش ويتشنج. أجلسته على كرسي وكررت سؤالي:

– ألا تريد كوبًا من الماء؟ ألم يعطوك حبوبًا لتهدئة الأعصاب؟

ابتسم ابتسامةً كئيبة وقال:

– أنا لا أؤمن بالعقاقير. إذا أردت أن أتابع حكايتي فعليك أن تساعدني على استرجاع ذاكرتي. وهذا يتطلب زجاجة عرق من شغل الرهبان. بالقرب من المدخل دكان صغير يبيعون فيه منتوجات الدير. فاسعفني بزجاجة لعلّي أتخلص من هذه الأزمة.

امتثلت وجئته بما طلب. فنزع الفلينة بيده المرتجفة وقرّب الزجاجة من أنفه وأخذ يتنشّق بنهم رائحة العرق المثلث وهو يقول:

– رائحة اليانسون، ما أذكاها. إنها تنعش القلب وتطلق اللسان. هذا العرق الراقد في أقبية الدير له طعم العرق الذي كنت أعتّقه في بيتي.

– ألا تريد قليلاً من الماء مع العرق؟

– لا! بلعة أولى بدون ماء لتهدئة الأعصاب، ثم بلعة ثانية لإزالة الانقباض، وبعد الثالثة تدب الحرارة في العروق الهرمة فيعود الدم إلى دورته الطبيعية وتستيقظ الذاكرة. أنصت! ألا تسمع الآن أصوات استغاثة، أصوات غريبة عجيبة تنطلق من قعر الوادي؟

ظننت أنه لا يزال تحت تأثير الصدمة النفسية فحاولت أن أطمئنه وكررت قولي:

– لقد عاد الهدوء، يا شيخي. لقد عاد الهدوء.

فارتعش وأجاب:

– الهدوء! أي هدوء؟ الهدوء المزيَّف؟ كل شيء عندنا مزيَّف. اللبناني أصبح يشعر بأن أمنه لا يتحقق إلا عندما يشتد قلقه... ألا تسمع أصواتا ترتفع من الوادي؟

– أي وادي؟ إن الدير الذي يضيفنا محاط بأودية كثيرة.

– وادي نهر الدامور. ألا تذكر ذلك الوادي الذي كان البيروتيون يقصدونه للنزهة أيام الآحاد والأعياد ويجلسون على ضفاف النهر تحت فيء الدلب والصفصاف.

– البيروتيون وغيرهم. نعم أذكر، ان منتزهات ملقى النهرين ذائعة الصيت. وهي بالحق تستحق صيتها، فالوادي الذي يضمها بين جناحيه رائع، رائع جدًا. إنه بالحق تحفة سياحية.

– رائع ومخيف، ومخيف جدًا. كل الأشياء الرائعة جدًا هي بذات الوقت مخيفة جدًا. عبر هذا الوادي تمرّ طريق الفاتحين، طريق الجنوب، وطريق دير القمر وطريق فلسطين أيضًا، طريق تخضبت بدماء شعوب كثيرة، والآن أصغِ جيدًا. ماذا نسمع؟ لقد بدأ الهجوم مع بزوغ الفجر. ألا تسمع جلبة ونقر أبواق وقرع طبول؟ وهذه الأصوات الغريبة؟ ليست بصهيل ولا بزئير. إنها بين الصهيل والزئير، ربما نهيم فِيَلة... أجل، هذا نهيم الفيلة. لقد هجموا بالفيلة...

قلت في نفسي: لا شك أن الشيخ يهذي. لقد فعل الكحول مفعوله وأفقده السيطرة على أفكاره، وإذا به يفاجئني بالقول:

– أنت تظنّ أني أهذي وأنّ ما أصوّره لك هو من بخار العرق.

– حقًا هذا ما ظننت... كنت تتكلم عن وادي نهر الدامور وطريق دير القمر ثم أخذت تسمع قرع طبول ونهيم فِيَلة. فيلة في وادي الدامور! من أين أتتنا الفيلة؟ لا شك أنك مازح.

– لا. لست بمازح ولا بسكران. بل أنت نسيت، نسيت، يا صاحبي، أننا قمنا بجولة عبر غياهب العصور نلملم الذكريات التي من شأنها أن ترشدنا إلى تفهم أعمق

لوضع المنطقة ولمعنى الدامور، وقد اقتطفت لك هنيهة مثيرة من الهنيهات التي طواها الزمن ففاجأتك بهجوم الفيلة. هذا الهجوم ليس مجرَّد خيال. إنه افتتاح لمعركة تاريخية حاسمة دارت رحاها نحو مئتي سنة قبل الميلاد وكان مسرحها ضفاف نهر الدامور بالذات. في ذلك الحين كان الصراع الدامي على أشده ما بين مصر وسوريا، أو بالأحرى ما بين بطالسة مصر وسلوقيي سوريا. كلا الفريقين يتنازعان السيطرة على طريق فلسطين. أجل، فلسطين كانت ولا تزال بيت القصيد في معضلات الشرق الأوسط. والطريق إليها لا تصير آمنة إلا بعد الاستيلاء على هذه النقطة الاستراتيجية أعني بها مصب نهر الدامور. هنا التقى الجيشان، الجيش السوري بقيادة انطيوخوس الكبير، تمركز على الضفة الشمالية بينما تربّص له المصريون، بقيادة نيقولاوس، في الجيب الذي حفرته السيول ما بين السيّار والسعديات. كتائب المشاة السورية لا تستطيع التحرك إلا ببطء نظرًا لثقل الأسلحة التي يحملها الجنود: دروع كبيرة مصفحة بجلود البقر وسيوف ذات حدين ورماح طويلة... المصريون يتفوّقون عليهم بدقة الرماية وبسرعة التحرك لأنّ أسلحتهم أخف وزنًا. لكن السلوقيين أخذوا عن الهنود استعمال الفيلة في المعارك والفيلة كانت تقوم مقام المصفحات والدبابات في أيامنا هذه أي انها تفتح ثغرة في دفاع العدو وتمهد لهجوم المشاة. فما ان بزغ الفجر ودق النفير حتى هجم السوريون بأفيالهم عبر النهر محطّمين خط دفاع العدو ثم لحقت بهم كتائب «الهوبليتس»[١٢] ثم الحرَس الملكي فدحروا جيش نيقولاوس وأسروا منه أكثر من ألفي جندي. انتصارهم هذا فتح أمامهم باب الجنوب على مصراعيه فزحفوا إلى فلسطين وانتزعوها من المصريين. لقد اخترت لك هذا المشهد التاريخي لأبيّن لك أهمية الدامور من الناحية الاستراتيجية.

– حسنًا، لكنك مهما تداورت على التاريخ وتوغلت في منعرجاته فلن يمكنك إقناعي بأن الدامور هي مفتاح فلسطين.

– الدامور مفتاح بيروت بالنسبة للقادمين من الجنوب كما انها مفتاح الجنوب بالنسبة للآتين من الشمال، إنها عقدة مهمة لا بد لكل فاتح من فكها ليتابع سيره نحو الهدف.

١٢ المشاة في جيش السلوقيين.

أنظر إلى هذا الشارع الفسيح الذي خطته الطبيعة على شاطئ البحر المتوسط. إنه سوق وشارع: سوق لتبادل السلع وشارع لمرور الغزاة، تارة يغلب عليه طابع السوق وطورًا طابع الشارع. صور وبيروت كانتا على عهد الفينيقيين من أضخم مراكز التجارة وكان التاجر الفينيقي يستجلب الحرير من الصين والهند والعجم عن طريق مصر والبحر الأحمر أو عن طريق تدمر والفرات فيحوكه ويصبغه بالألوان الخلابة ثم يبيعه للرومانيين واليونانيين وعلى عهد المماليك البرجيين كانت العلاقات التجارية على قدم وساق ما بين سواحل لبنان وجنوب أوروبا. كان الجنوبيون والبنادقة الطليان والقطالونيون الاسبان والبروفنسيون الفرنسيون يستوردون من صيدا وبيروت الطيوب والحرير ويجلبون المصنوعات على مختلف أنواعها... لكن كلما ازدهر السوق واشتهر زاد استرعاءً لأنظار الفاتحين. ينظرون إليه فيجدون أنه سهل المنال، مفتوح من كل الجهات أمام طموحاتهم فيزحفون تارة من وراء صحراء سينا وطورًا من جهة دجلة والفرات وأحيانًا ينحدرون من قمم الجبال فيدمرون السوق وينهبون خيراته ويجعلون من شاطئ الأرجوان موطئًا لسنابك خيولهم. لقد كُتب لِلُبنان منذ فجر التاريخ أن يكون الطريق الشارع الذي تتقاتل على ممراته جحافل المتحاربين وتتصادم فيه الحضارات والديانات والثقافات. إنما التصادم هو نوع من التعارف والتقاتل ضرب من اللقاءات المثيرة والتذابح وسيلة لمزج دماء المتحاربين على اختلاف أعراقهم. إن الصليبيين الذين غزوا سوريا وتقاتلوا مع أهلها على مدى مئات السنين تعلموا منهم زراعة السمسم والأرزّ والمشمش ومنافع الفستق الحلبي والزعفران ودبس الخروب. هذه سنّة الطبيعة، يا بني، فهي لا تجمع إلاّ لتفرق، ولا تفرّق إلا لتجمع، وكثيرًا ما تجعل من التنابذ والتعادي مدخلاً للتعارف والمحبة. هل مللت حديثي؟

بالفعل كان انتباهي قد تحوّل تلقائيًا من المحدّث إلى أحفاده إذ رأيتهم يتهامسون ويتسللون الواحد تلو الآخر نحو الجدار المحاذي لمزرب الدجاج وكأنهم منهمكون بتنفيذ خطة مرسومة. فاعتذرت من قلة اهتمامي بقصة الشيخ وقلت:

– حديثك لا يُملّ يا شيخي. لكنّك تغوص في شروحات بعيدة عن الموضوع الذي من أجله جئت أستفسرك.

– بل نحن في صلب الموضوع، يا بني. فإذا أنعمنا النظر في هذا الشارع الساحلي الذي مرَّ عليه الفاتحون منذ فجر التاريخ والذي يمتاز بفساحته وسهولة اختراقه، وجدنا

فيه ممرين اجتيازهما صعب وخطر: الأول مصب نهر الكلب والثاني مصب نهر الدامور. وبما أنك تريد أن أحصر كلامي في ما يتعلق ببلدتنا، فإني أدعوك لتفحص الأرض القائمة عليها تلك البلدة المنكودة الحظ، فبين حارة الناعمة وحارة الروس واد صغير حفرته السيول وبين معلّقة الدامور والدامور القديمة ساقية «أبو دمعه»، وبين الدامور القديمة وتلة الحمرا المحاذية لمصب النهر يوجد أيضًا ساقية «غيلانه» ثم نهر الدامور وقبل أن تصل إلى السعديات عليك أن تجتاز حفرة حفرتها السيول أيضًا في محلة السيار. فالدامور، كما ترى، محاطة بمتاريس طبيعية حفرتها السواقي والسيول. إنتبه إلى الشوف، إلى جبل الشوف كيف انه يقوّس ظهره ويمدّ قرونه لينطح البحر ما بين خلده والسعديات: الدامور هنا ما بين القرنين الخطرين، الممر منها إلى السعديات ضيق والأرض وعرة. عبور النهر ليس بالشيء اليسير عندما يرابط العدو على ضفته إذ يكفي لشرذمة من الجنود أن تكمن وراء الصخور الممتدّة على جوانب الوادي لتقطع الطريق على جيش جرار. إن الغزوات الكبرى التي استهدفت الاستيلاء على بلاد الشرق الأوسط مرّت كلها بنهر الدامور وكثيرًا ما دارت المعركة الحاسمة هنا على شفير هذا الوادي الذي تغزّل بجماله الرحّالة. من هنا مرّ الجيش الأشوري الذي اقتحم صيدا ودمّرها نحو سبعماية سنة قبل الميلاد ومن هنا مرّت غزوات الحثيين والبابليين وجيوش قمبيز والاسكندر المقدوني ثم كتائب الرومانيين وحملات الصليبيين وبيارق الفتح العربي وخيالة الماريشال اللّنبي... أتذكر ما قاله الجنرال دنز أثناء حرب ١٩٤١؟

– أذكر أنّه أعلن بيروت مدينة مفتوحة وقال: إذا سقطت الدامور انتهت الحرب.

– وهكذا كان.

– ولكن كيف سقطت الدامور آنذاك؟

– أرجوك أن لا تستبق الحوادث، سيأتيك الشرح في حينه.

أعتقد أنّك فهمت الآن أنّ موقع الدامور الجغرافي هو الذي جعل لها «في كل عرس قرص»، فكلما عصف بلبنان حرب أو تعرضت البلاد لغزوة أو فتنة، كان على الدامور المسكينة أن تتحمل القسط الأوفر من الدمار والتشريد والشقاء.

– لقد فهمت ذلك، لكني لا أزال أنتظر تفسيرك للفظة دامور. أهي عربية أم فينيقية؟

– قلت لك اني سأترك للتاريخ حلّ هذا اللغز، إذا أمكن.

– أما حان الوقت لكي يلفظ التاريخ حكمه؟ أراك تريد أن تجعل من مأساة الدامور رواية بوليسية حيث يبقى اللغز معلقًا حتى الفصل الأخير.

– إنها بالواقع أفظع من أية رواية بوليسية اذ ليس ثمة بوليس في هذه الرواية سوى أنا وأنت. المأساة على الأرض أشدّ إثارة منها على الشاشة والرواية التي ننسّق نحن أحداثها ونرتكب نحن جرائمها نستمتع بها أكثر من تلك التي نقرأها في الكتب أو نشاهدها في الأفلام.

– والفصل الأخير. نريد أن نرى الفصل الأخير.

– ربما يأتي الفصل الأخير ويبقى الأمر معلّقًا فالدامور معلّقة على صليب الدسائس الدولية وقد كُتِبَ لكل من يتعلق بها أن يعاني مصيرها.

– ورأيك الخاص، يا شيخي؟ ما هو رأيك في أصل الكلمة؟

– ماذا استخلصت أنت، من كل ما رويته لك حتى الآن؟

– استخلصت أن موقع الدامور هو نقطة استراتيجية هامة وأنّ هذه البقعة قد تخضّبت منذ فجر التاريخ بدماء شعوب كثيرة.

– عال! إننا على طريق الكشف.

*

الوثنية ظلّت الدين السائد في المنطقة كلها حتى أواخر القرن الثالث بعد المسيح و لم تقفل هياكل الأصنام إلا على عهد الأمبراطور تاودوسيوس سنة ٣٩٢ م. وبالرغم من أوامر الامبراطور بقي أهل لبنان أوفياء لالهتهم ومتمسّكين بتقاليدهم وان دعاة النصرانية الذين أرسلهم يوحنا فم الذهب بطريك القسطنطينية في أوائل القرن الخامس ليرشدوا أهل لبنان، لاقوا في تنفيذ دعوتهم مشاكل عديدة... وحتى اليوم، يا بني، حتى اليوم نحن أقرب إلى الوثنية منا إلى التوحيد. عبادة الأصنام متأصّلة فينا: في كل يوم، في كل ساعة ترانا بحاجة إلى عبادة أشخاص... في السياسة، في الفن، في الشعر والأدب، في الاقتصاد، نرفع أصنامًا على مذابح لبنان ونركع وننسحق ونترجّاهم بأن يقبلوا قرابيننا... وفي مطاوي القرن الخامس نظمت كنائس لبنان فجعلت صور رأس ولاية فينيقيا

الساحلية وكنيستها الكرسي الأول في بطريركية انطاكية وجعلت تحت حكمها كراسي أسقفيات صيدا وجبيل والبترون، أما بيروت فكان عليها مطران مستقل. وكانت المنطقة الممتدة بين صيدا وبيروت، الموافقة لمقام النبي يونس وبرجا، تدعى «برفيريون» Porphyrion وكان فيها كنيسة ودير ورد ذكرهما في كتُب المؤرخ البيزنطي «بروكوبيوس» Procope[١٣]. الدامور كبلدة لم تكن أتت بعد إلى حيِّز الوجود، أما النهر فكان معروفًا وكان يعتبر الحدَّ الفاصل ما بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت ويرجِّح علماء الآثار أن ثمة بلدة قديمة كانت قائمة حيث تقوم اليوم قرية الناعمة وكانت تدعى «ليونتوبوليس» Léontopolis أي مدينة الأسُود وقد ورد أيضًا في تواريخ الرومانيين ذكر محطة خلده وبما أن حرف الخاء غير موجود في اللاتينية فاستبدلوه بالهاء وسموها «هلده» Mutatio Heldua وكان فيها هيكل قديم ما لبث أن حلّت محله كنيسة بيزنطية وهي التي كشفت آثارها مؤخرًا بمناسبة شق أوتوستراد خلده – الدامور.

بعد افتتاح صور على يد الصليبيين أصبحت سواحل لبنان كلها تحت سيطرة الافرنج وقد تمّ ذلك في أوائل القرن الثاني عشر م. قسّم الصليبيون البلاد الواقعة تحت حكمهم إلى أربع ممالك: مملكة أورشليم وهي تمتد من شبه جزيرة سينا إلى نهر الكلب وإمارة طرابلس وإمارة إنطاكية وإمارة الرها. وكانت صيدا وجوارها تؤلف «بارونية» ذات استقلال داخلي يدير شؤونها بارون من أسرة غوتيار وكانت تمتد من الليطاني إلى نهر الدامور وتبسط سيادتها على عدلون والصرفند وأنحاء جزين وقسم من الشوف. أما بارونية بيروت فكانت تمتد من نهر الدامور إلى نهر الكلب وكانت البارونيتان خاضعتين فيما يختص بشؤونهما الخارجية لملك أورشليم.

– إذن حتى الآن المعروف هو نهر الدامور. أما البلدة فليس لها ذكر.

– صحيح.

– والنهر هو الحدّ الفاصل بين منطقة صيدا ومنطقة بيروت كما كان على عهد الفينيقيين. وقد لقّبوه دامور على اسم أحد الالهة الذي كان يعبده الصيدونيون. هذا الموضوع أصبح واضحًا كلّ الوضوح ولا أفهم لماذا يكون لك فيه رأي خاص.

– لأنّك أردت أن تعرف مصدر الكلمة. أما ذكرنا أنّ أسماء آلهة صيدون لا بدَّ أن

١٣ عن الأب هنري لامنس: آثار لبنان.

تكون انعكاسًا لبعض الوقائع التاريخية والجغرافية التي عملت على تكوين تلك المدينة المملكة: كنع، فينيق، دامور. وقد أدّى بك الفضول الى السؤال عن اشتقاق كلمة دامور.

– صحيح. لقد تساءلت لماذا حشروا في ثالوثهم هذا الإله الذي يعمِّر ويدمِّر ويتّخذ من اللهيب حياة جديدة ومن أين أتوه باسم دامور.

– هنا يكمن اللغز وقد اتفقنا على أن نترك حلَّه إلى أن يفرض الحلّ نفسه علينا.

*

عاد الأحفاد من جولتهم حول مزرب الدجاج وعلى وجوههم إمارات الارتباك والقلق الشديد وجيوبهم منتفخة كأنهم يخبئون فيها أشياء سريعة العطب وهم يخشون أن ينفضح أمرها. فاقترب أكبرهم سنًّا وكان الوحيد بينهم الذي ما زالت جيبه بدون انتفاخ، اقترب من أذن جده وهمس فيها كلمات جعلت الشيخ ينتفض ويصيح بأحفاده:

– يا عيب الشوم! كيف لا تخجلون؟ ألى هذا الحد وصلت بكم الدناءة؟ أبسرقة القن نعبِّر للدير عن إقرارنا بجميله؟ أغربوا عني! أنا لست جدكم.

فانبرى من بينهم محامٍ يناهز عمره الثمانية وأجاب بنبرة من يثق تمامًا بنفسه:

– مش حرام، يا جدي، أن يمضي علينا العيد الكبير بدون أن نفاقس بالبيضات؟

– كان عليكم أن تطلبوها من صاحبها. فهو لن يبخل عليكم بها. ألم يقدموا لنا البارحة عند العشاء بيضًا مسلوقًا؟

– ولكن البيضات التي قدموها لنا على العشاء ليست مثل بيضات أبونا موسى. تلك بيضات مزارع، اما هذه فبلدية. أنظر ما أجملها.

قال هذا وسحب من جيبه بيضة كبيرة ناصعة البياض وأخرى لونها يميل إلى السمرة. فاستشاط الشيخ غضبًا وصاح:

– أعيدوها حالاً إلى أبونا موسى. لو كان والدكم في قيد الحياة لعرف كيف يؤدبكم. السرقة حرام، حرام وعيب.

– ولماذا، يا جدي، كل الناس تسرق ونحن «حرام»! أما سرقوا لنا بيوتنا وأمتعتنا كلها وحتى دجاجاتنا؟

– إن اللّه تعالى يحرّم السرقة، يا ولدي. أنسيتم وصايا اللّه: لا تقتل! لا تسرق!

– ولكن اللّه في غيبة، يا جدي. لو لم يكن غائبًا، لما تركهم ينهبون كنيسة السيدة ومار الياس ويحرقون صور القديسين دون أن يتحرك.

دفاع المحامي الصغير أحرج الشيخ فأخذ يحكّ صلعته ثم قال:

– أجوبتك، يا ولدي، هي أكبر منك. إسمع! أتريد أن تلطخ اسم الدامور؟ أتريد أن يشيعوا في كل مكان أن أولاد الدامور سرّاقون! أن أولاد الدامور أوباش يسرقون مضيفيهم... يسرقون قن الدجاج.

احمرّت وجنتا الصبي وأطرق برأسه إلى الأرض.

– إذن عليكم أن تذهبوا فورًا وتعترفوا لأبونا موسى بخطيئتكم وتطلبوا السماح.

– وهل نردّ البيضات؟

– حتمًا. أسرعوا قبل أن يبدأ الجناز. لقد دق جرس الكنيسة دقتين. عند الثالثة تبدأ الصلاة.

عمل الأولاد بوصية جدهم وركضوا نحو غرف الرهبان وما هي إلا دقائق حتى عادوا فرحين مهلّلين لأنّ أبونا موسى سمح لهم بأن يحتفظوا بما غنموه من سرقة القن شرط أن لا يقعوا مرة أخرى في حبال الشيطان. لكن المحامي الصغير عاد يسأل جدّه:

– هل أبونا موسى مسيحي؟

– طبعًا، يا جدي، كيف يكون أبونا وغير مسيحي؟

– ألا يوجد أبونا إلا عند المسيحيين؟

– مبدئيًا لا.

– لكنه قال لنا: «أنتم فلاحون موارنة تسرقون البيض، الحمد للّه لأنّه لم يخلقني مارونيًا». هل يوجد مسيحيون غير موارنة؟

– نعم، يوجد.

– حتى في لبنان؟

– حتى في لبنان.

– إذن لماذا يقولون ان لبنان للموارنة.

– أغرب عني أنت وأسئلتك السخيفة. دعني في حديثي مع الأستاذ.

انصرف الأولاد مسرعين نحو الملعب. فتنفّس الشيخ الصعداء وأردف قائلاً – وكأنه في حوار مع نفسه –:

«هل تتسع رحمة اللّه للذين زجوا بأطفالنا في هذا الجحيم؟ تفتحت عيونهم على الدنيا فلم يروا، كيفما تطلعوا، سوى الفظاظة والعدوان والتجسس والنهب. ستُصنَّف اللصوصية مهنة شريفة كسائر المهن الحرّة. أي جيل سيكون هذا الجيل؟ وأنا أيضًا أصبحت أشعر أحيانًا بميل غريب كأني أود أن أختلس شيئًا ما، شيئًا تافهًا ربما، المهم أن أختلس شيئًا وأن يكون هذا الشيء لغيري. شهوة مقتنى الغير. اللصوصية والنفاق في كل زاوية، على كل وجه. لا فرق بين طائفة وطائفة أو بين حزب وحزب... الأزمة الاقتصادية، ربّما عولجت، والسياسية ربّما تغلّبوا عليها. ولكن الرياء وشهوة مال الغير وخيبة الأمل. خيبة أمل كل إنسان بنفسه وبمواطنيه. الأزمة الشخصية الناشبة في صميم كل منا. القرف. قرف الإنسان من مجتمعه ومن ذاته. وباء القرف. هذا النوع من الكوليرا الذي تنساب فيروساته إلى أحشائك ويجعلك تمج ذاتك وبلدك. نتبادل السرقات كما يتبادلون التحية. وتحت ستار الإخلاص للمبادئ السامية نعقد الصفقات ونتاجر ببؤس الناس وبدماء الأبرياء...».

– أنت لا ترى لهذه الحرب سوى وجهها الكالح، البشع.

– وأنت؟ أترى لها وجهًا آخر؟

– لا يجوز يا شيخي أن نذبح الأمل. «التراب الذي تدور عليه أشرس المعارك تنبت منه أفسح الآمال»، يقول أحد الحكماء.

– صحيح. نحن الشيوخ جيل اللعنة. علينا أن نستعفي. السبب الحقيقي ليس تراكُم السنين على كواهلنا ولا تصَلُّب الشرايين، إنما فقدان الأهل والرفاق وأيضًا فقدان الأعداء.

– الأعداء؟

– نعم الأعداء. وجودهم بالمواجهة يعطي حياتك زخمًا وطَعمًا.

– ثَمّة مفكرون يرون أن لبنان سيخرج من المحنة وهو يرفل بثوب جديد يبهر الأنظار.

– ولكن من أين يبتاعون القماش؟ أمن سوق سرسق أم من سوق الطويلة ومن يشرف على تفصيل الثوب: أبو سمح أم كريستيان ديور؟ سيختلفون على اختيار التاجر والخياط، لكنهم سيبقون في جوّ السوق. أنا رجل هرم. كل شيء فيَّ يحملني على التشاؤم: سنّي، صحتي، اختباراتي ومزاجي، فاعذرني.

دقّ جرس الكنيسة الدقة الثالثة مؤذنًا ببدء الصلاة، صلاة جمعة الآلام. فأدنى الشيخ قنينة العرق من شفتيه و لم يكن أبقى فيها إلا القليل القليل فأفرغها قائلاً: هذه قطرة النسيان. هيًا بنا إلى جناز المسيح!

*

الدامور على عهد المعنيين والشهابيين

(١٥٧٢-١٨٤١)

– أول ما ذُكِرَت الدامور في تاريخ الطائفة المارونية اقترن ذكرها بعملية قطع الطريق. إسمع ما يقوله البطريرك اسطفان الدويهي:

«في سنة ١١٦٠ م. (٥٥٦ هـ.) كان زهر الدولة بن بحتر واليًا على ثغر بيروت فولاّه الملك نور الدين صاحب دمشق القنيطرة وجلبايا وقسمًا من وادي التيم وبرج صيدا والدامور والمعاصر ومجدل بعنا وكفرعمّيه ورتب له علائق لأربعين فارسًا لمحاربة الافرنج وكان أبوه شرف الدولة قاطنًا في عرمون العرب. فربط طريق الدامور على الافرنج»[١٤].

– يا للعجب! أكُتِب للدامور منذ البدء أن يقترن اسمها بقطع الطريق؟

– نعم، والتنوخيون قد تنبهوا لأهمية هذه البقعة من الناحية الاستراتيجية وهم أول من ربط طريق الدامور[١٥]. فالصليبيون بعد أن طردهم العرب من سواحل الشام ظلوا يحلمون باسترداد ما فقدوه فكانوا يأتون من جزيرتي قبرص وورودس أو من مرافئ إيطاليا وينزلون على شواطئ خلده والدامور حيث كانوا يتحاربون مع العساكر العربية. لذلك قضت الحاجة بتحصين الساحل وتشييد الأبراج لحراسته وقد شُيِّد أحد هذه الأبراج في خلده حيث لا تزال آثاره حتى اليوم، وشُيِّد برج آخر قرب مصب نهر الدامور[١٦] ويقول البطريرك الدويهي في تاريخه:

«في سنة ١٣٠٢ م. (٧٠٢ هـ.) ليلة الأربعاء ثامن جمادي الأول، نزلت الافرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت فقتل في المعركة فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين».

وقد ورد ذكر الدامور في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى[١٧].

١٤) تاريخ الطائفة المارونية للبطريرك الدويهي.
١٥) طرق لبنان في تلك الأيام كانت كلها «طرقات مكارية» وأول طريق كروسة أنشئت هي طريق بيروت الشام سنة ١٨٥٩.
١٦) ورد ذكر هذا البرج في كثير من الوثائق التاريخية لكني لم أعثر له على أثر.
١٧) «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى قام بنشره الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة «المشرق».

«وقعتُ على مكتوب من أرناط الفرنجي صاحب صيدا[١٨] أنه أعطى الأمير جمال الدين حجّي شكارة بذار قمح في قرية الدامور مُلكًا له ولولده ولمن يقوم مقامه في سنة ١٢٦٠ م».

«وفي سنة ٧٠٢ هجرية حضر إلى ميناء الدامور ليلة الأربعاء شهر جمادى الأول مراكب الفرنـج الجارية في بحر المالح فرأوا نارًا لاحت لهم من جهة القرية فتبعوها وكان بالقرية شمس الدين عبداللّه وأخوه فخر الدين ومعهم جماعة يشتغلون بالزراعة في الدامور وهم نيام مطمئنّون إلى البُزُك (الحرس) المرتّب على ميناء الدامور يتولاه بنو العدس وبنو السوبرالي فأوقع الفرنـج فيهم وأخذوا أسرى كل من قدروا عليه ومَن لم يقدروا اجتهدوا في قتله».

وقد ورد في الكتاب ذاته رواية ثانية لتلك المجزرة: 'كان للأمير فخر الدين ابن جمال الدين ولأخيه عبداللّه مواشٍ وزراعة بالدامور فلما كانت ليلة الأربعاء الثامن من جمادى الأولى سنة ٧٠٢ هـ. (١٣٠٣ م.) جلس الأخوان يتحادثان فقال عبداللّه أنا خائف من نزول الفرنج علينا فيأخذونا أسرى فقال عبد الحميد فخر الدين وهو لا يعلم ما قدّر له في الغَيب أنا واللّه لا أسلّم نفسي إليهم ولا أدعهم يأخذوني أسيرًا وكان الأخوان نَوَيا صيد الحجل وتواعدا مع إخوتهم أن يحضروا إليهما في الدامور سَحَرًا ليتوجّهوا إلى الصيد فنزلت الفرنج في تلك الليلة وطرقوا عليهما الباب وظنّ الأخوان أنهم الجماعة المتواعدون للصيد فصرخا ما حل الآن وقت التوجه لصيد الحجل. نعم حلّ! وفتحوا الباب فأخذوا عبداللّه أسيرًا ومانَع عبد الحميد عن نفسه حتى قُتل تمسُّكًا بقوله لأخيه في أول الليل لئلا يحنث بقسمه وقُتِل معه مجاهد ابن أبي حسن وابن عم مجاهد ومعتب ابن أبي المعالي والحسين أخوه من أهل البيت وبقي عبداللّه معهم خمسة أيام ثم باعوه بالقرب من خلدة...

– ومَن هم هؤلاء الأمراء يا شيخي؟

– التنوخيون الذين عُرفوا بأمراء الغرب[١٩] كانوا حُماة الثغور أثناء الحملات

١٨) في العهد الصليبي كانت صيدا ولاية يحكمها «كونت» حدودها من الدامور شمالاً إلى جبل الكرمل جنوبًا و لم يغادرها الفرنـج نهائيًا إلا بعد سقوط عكا في أيدي المماليك سنة ١٢٩١.

١٩) تنوخ قبيلة عربية مسيحية الأصل من شعب مملكة الحيره في العراق انتقلت إلى بلاد حلب واعتنقت الإسلام على عهد المماليك استوطنَت جماعة منها جبل لبنان وخرج منهم الأمراء التنوخيون (المُنجد) وقد ورد في جريدة «النهار» بتاريخ ٩٠/٦/١٦ صفحة ٨ مقال للسيد نجيب البعيني بمناسبة تكريم الأمير نديم آل ناصر الدين التنوخي ان ثمّة أُسَرًا درزية في لبنان متحدّرة من سلالة عربية الحسب والنسب ترقى

الصليبية على شواطئ لبنان وكانت الدامور تشملها حمايتهم. عاصمتهم بلدة عَبيه قاعدة الشحّار الغربي. والشحّار يمتد من عَبيه حتى السعديات جنوبًا والناعمه شمالاً وقد بنى التنوخيون على قمة مطيّر عبَيه برجًا لمراقبة الساحل، بناه الأمير بدر الدين بن صَدقه.

من هذه الوقائع يتضح لنا أن الدامور ظلّت، على عهد التنوخيين، محافظة على رسالتها التاريخية وهي أن تقف سدًا بوجه الغزوات فتُربط فيها الطريق وتدور على أرضها المعارك الحاسمة. وفي كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان للشدياق، نقع على الأسطر التالية:

«في سنة ١٤١٣ م. لما قدم الافرنـج في مراكبهم إلى الدامور، نهض إليهم من دمشـق الملك داود الجركسي فـالـتـقـاه الأمير قـاسـم وسـار مـعـه بـرجـالـه إلى قـتـال الافرنـج...»

– وماذا تعني كلمة دامور في ذلك الزمن؟

– كـانـوا يـطـلـقـون اسـم دامور على النهر وجواره كما كانت العادة على عـهـد الفينيقيين والبيزنطيين. أما القرية الدامورية فكانت على أغلب الظن تتألف من ثلاثة أو أربعة بيوت وبعض الخيام إلى جانب النهر يقطنها المزارعون العاملون في أرض الأمراء بالإضافة إلى الرجال الموكل إليهم حراسة الشاطئ. والجدير بالذكر أن الأمراء المعنيين قدموا هم أيضًا إلى لبنان[٢٠] ليحاربوا الافرنـج بتوجيه من صاحب الشام فتحالفوا وتصاهروا مع التنوخيين واستوطنوا في الشوف:

«ترك الأمير معن وقبيلته سهل البقاع واستوطن في الشوف وكان الشوف في ذلك الزمن مقفرًا وكان التنوخيون يحكمون القسم الغربي من لبنان المقابل لمدينة بيروت فتحالف المعنيون مع آل تنوخ وتصاهروا، فأرسل التنوخيون إلى الأمير معن عمالاً خبيرين بفن البناء فبنوا للأمير ولأصحابه بيوتًا من حجر لأنه لم يكن من الممكن ضرب الخيم في مرتفعات الشوف. وهكذا تخلّت القبيلة عن عادة التنقل واستقرّت ملتحمة بالأرض. ولما انتشر هذا الخبر، أقبل إلى الشوف عدد غفير من المهجرين الذين كانت الافرنـج قد احتلت مساكنهم، فأخذت القرى تنبت على أرض الشوف»[٢١].

بجذورها إلى أسرة القاضي التنوخية ومن هذه الجذور آل القاضي في بيصور وفي دير القمر وآل أمين الدين في عبيه وآل ناصر الدين في كفرمتّى.

٢٠) في القرن الثاني عشر الميلادي قدم المعنيون إلى لبنان بتوجيه من طاغاتكين. ومن المفيد ذكره أنه بعد انتصار السلطان سليم على المماليك في معركة مرج دابق تلألأ نجم المعنيين لأنهم ناصروا السلطان بينما انحاز التنوخيون إلى المماليك.

٢١) عن وثيقة محفوظة في وزارة الخارجية الفرنسية نقلها الدكتور عادل اسماعيل في تاريخه.

في أواخر القرن السادس عشر، قدر للبنان أن يتولّى قيادته أمير كانت شهرته بُعد النظر تفوق شهرته بقِصر القامة. أدرك فخر الدين الكبير (١٥٧٢–١٦٣٥) أن سياسة ربط طريق الدامور على الافرنج لن تجدي نفعًا وان ازدهار البلاد لن يكون بانطوائها على ذاتها بل بانفتاحها على البحر وما وراءه من خيرات وحضارات، فالساحل اللبناني كله مرافئ صغيرة أعدتها يد الطبيعة لاستقبال السفن، إذن لماذا لا نجعل من لبنان ذلك الجسر المزدان بالقصور والجنائن والممدود بين الشرق والغرب، بين رمال البحر المتوسط ورمال البادية فيتعايش على أرضه المسلمون والمسيحيون بوئام وسلام مستقبلين الضيوف القادمين من الغرب بقرع الأجراس والقادمين من الشرق بهتافات المآذن؟ لذلك أخذ الأمير يشجع توطين الموارنة في الشوف والمتن، ولاسيما في المناطق الساحلية مستهدفًا من جرّاء ذلك أمرين:

* أولاً: الحؤول دون تقسيم لبنان إلى مقاطعات طائفية تتنابذ وتتحارب فالخير كل الخير بالجمع والتوحيد لا بالتجزئة والتفتت.

* ثانيًا: تنمية العلاقات الودية والتجارية مع الغرب المسيحي ولاسيما مع إيطاليا والفاتيكان وفرنسا. كانت مصانع توسكانا في إيطاليا بحاجة إلى الحرير اللبناني وذلك ما حَمل فخر الدين على تشجيع صناعة الحرير وتربية دود القز في إمارته حتى أصبحت من موارد البلاد الأساسية.

حينئذ أخذ الموارنة المحتمون في المناطق الجبلية يغادرونها نازحين نحو السهول حيث المناخ ألطف والأرض أخصب وكانت السهول بمعظمها بورًا فأخذ الفلاحون يحرثونها ويعتنون بها عناية مارونية فأعطت نتائج ممتازة وعمل فخر الدين على تنشيط صناعة الحرير فانتشر التوت في كل المناطق اللبنانية وفي تلك الحقبة أيضًا شرعت بعض العائلات تهجر سوريا هربًا من ظلم الباشاوات وتستوطن في لبنان حيث بدأ السكان ينعمون بالأمان وبالازدهار الاقتصادي وبالحرية في ممارسة طقوسهم الدينية. حينئذ اتجهت أنظار بعض العائلات المارونية إلى تلك البقعة المجاورة لنهر الدامور. فهي ليست فقط موقعًا استراتيجيًا صالحًا لربط الطريق ونصب الكمائن، بل فيها أيضًا المناخ المعتدل اللطيف والأرض الزراعية الصالحة للاستثمار، فإلى مَ نتركها مقفرة لا يناغي فيها طفل ولا يقرع جرس؟ هرولوا مسرعين – من أين هرولوا بالضبط؟ لا أعلم – لكنهم قرروا أن يتكمّشوا بهذه الأرض وأن يحيوها بعرق جبينهم وبإيمانهم بالله وبالحياة فبنوا كنيسة

صغيرة على اسم مار ميخائيل وفي ظلّها عمَّروا لهم ولعيالهم بيوتًا متواضعة: هكذا أتت قرية الدامور المارونية إلى الوجوه، بعد أن كانت على عهد التنوخيين مزرعة صغيرة لا يقطنها سوى مزارعي الأمير جمال الدين حجّي وحرس الشواطئ.

*

رافقت القرية الصغيرة حياة الأمير الكبير في السراء والضراء. فبعد انتصار المعنيين على بني سيفا هدم فخر الدين قصور اعدائه في عكار ونقل حجارتها الصفراء الجميلة بحرًا من ميناء طرابلس إلى مصب نهر الدامور ومنه إلى دير القمر حيث بنى بها سراياه الشهيرة.

وفي شباط سنة ١٦١٣، لّما عزمت الدولة العثمانية على كسر شوكة الأمير وجرّدت الجيوش لمقاتلته، جمع الأمير أحزابه ورؤساء العشائر وأعيان البلاد،

«جمعهم في الدامور واستنهضهم للقتال، فرأى فتور عزيمتهم وأن لا رغبة لهم بمناوأة الدولة العثمانية، فعزم على مغادرة لبنان»(٢٢).

لجأ فخر الدين إلى إيطاليا حيث نزل ضيفًا على دوق توسكانا وأثناء وجوده هناك، أقلعت سفينة إيطالية تحمل بعثة غايتها رفع تقرير عن حالة لبنان أثناء غياب الأمير وقد ورد في تقرير رئيس البعثة أن السفينة رست قرب مصب نهر الدامور فنزل الركاب إلى البر وتوجهوا إلى دير القمر لمقابلة الأمير يونس.

«وفي كانون الثاني سنة ١٦١٥ عاد الأمير فخر الدين من إيطاليا لزيارة أهله وإخوانه في لبنان ولما وصلت المراكب إلى ساحل لبنان، ألقت مراسيها على مصب نهر الدامور فنزل منها الشيخ خطار الخازن وتوجه إلى دير القمر ليعلم الأمير يونس بقدوم أخيه فانتشر الخبر في الشوف وعمّ الفرح ونهض جمع غفير إلى الدامور لاستقبال الأمير. وابتدأت القوارب تأتي إلى البر وتأخذ الرجال ليسلموا على زعيمهم. أما هو فلم ينزل إلى البر لأنّ قبطان السفينة عارض بذلك محافظة على حياة الأمير. وطلع إلى السفينة الأمير يونس والأمير منذر والأمير علي الشهابي واجتمعوا بفخر الدين وقصّوا عليه كل ما جرى في غيبته. ثم رفعت المراكب مراسيها وأقلعت راجعة»(٢٣).

– هل كان ثمة مرفأ في الدامور؟

---

٢٢) الدويهي.

٢٣) عن تاريخ الخالدي.

– مصب نهر الدامور وجواره كانت تشكّل مرفأ صغيرًا آمنًا ترسو فيه الزوارق والشخاتير وتنساب منه البحّارة إلى قلب الجبل دون أن يشعر بها والي صيدا أو حكام بيروت. والجدير بالذكر ان المتصرف داود باشا فكّر بإنشاء مرفأ في الدامور ولكن الظروف لم تسعفه على تحقيق فكرته(٢٤). وفي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٦١٦ نشبت معركة شرسة قرب الدامور في محلّة عين الناعمه بين آل معن ووالي طرابلس ابن سيفا. فلنستمع إلى الشيخ أحمد الخالدي وهو يصف المعركة:

«كتب الأمير علي لعمه الأمير يونس أن يجمع رجال الشوف عمومًا ويلاقيه إلى النهر الأول وكذلك كتب إلى الأمير علي ابن الشهاب فاجتمع الجميع هنالك وعزموا على الذهاب إلى الدامور. وكان ابن سيفا عيَّن الأمير شلهوب بن الحرفوش والأمير ارسلان والأمير موسى وعشرين بالوكباشي من السكمانية(٢٥) مع غالب رجال بلاده لأجل حفظ بيروت ومساعدة الشيخ مظفر فلما نزل الأمير علي بمن معه من العساكر على الدامور، توجه شرذمة من العسكر وحرقوا قرية الناعمه وكان بها بلوكباشيان وجماعة ابن سيفا وحصروهم طول ذلك النهار إلى الغروب... فارسل جماعة ابن سيفا إلى الشيخ مظفر وأعلموه بما صار بهم فاعتمد أن يجعل الحرب والقتال عند عين الناعمه وعملوا متاريس على العين واصطفت رجالهم من عين الناعمه فصاعدًا إلى تحت حارة الناعمه وكان مقدارهم يزيد على ألفين، فجاء منهم رجل يسمَّى مخايل من قرايب الشيخ يوسف ابن المسلماني وأعلم الأمير علي وجماعته بما ذكرنا فركبوا من الدامور صباح نهار الإثنين ثاني شهر شعبان سنة ١٠٢٥ هـ. (١٦١٦ م.) ركب الأمير علي في السكمانية المشاة، والأمير يونس مع أهل الشوف مشوا على الميمنة لجانب الجبل، والأمير علي ابن الشهاب ورجاله مع رجال بلاد بشاره والشقيف وصيدا لجانب البحر على الميسرة وساروا سيرًا واحدًا فالتقى الجمعان على العين وصار الضرب بالبنادق بزيادة عن الوصف من الجانبين. وفي الحال انكسر الشيخ مظفر وقتلت فرسه وولّى هو وجماعة بيت سيفا منهزمين، فتبعهم رجال ابن معن إلى قرطبه بالقرب من الشويفات فقتلوا منهم مقدار مايتين وأما سكمانيتهم المشاة التي كانت في المتاريس بعين الناعمه فإنهم مسكوا مسكًا باليد وكانوا نحو مايتي رجل وأخذوا لهم ثلاثة عشر بيرقًا... و لم يقتل من جماعة ابن معن غير ثلاثة رجال... ثم ان ابن معن عاد هو ومن معه من الأمراء والطايفه وباتوا في الخيام على الدامور».

– إذن كانت الدامور مفتاح نصر باهر للأمير يونس.

٢٤) عن تاريخ لبنان للدكتور يوسف مزهر.

٢٥) سكمانية أو سكمان أو سيمان اسم فرقة من الانكشارية ومنها على أغلب الظن اشتق اسم «عيون السيمان».

– نعم، ويتابع الشيخ أحمد الخالدي قوله:

«وكان قد صار في هذا النهار أربعة حروب بأربعة مواضع: حرب في قرية عبيه وحرب في أغميد وحرب في عنداره، والحرب الكبير على عين الناعمه وفي جميع هذه الحروب صارت النصرة لجانب بيت معن. وفي ثاني يوم رحل الأمير علي والأمير يونس والأمير علي ابن الشهاب من الدامور ونزلوا على نهر بيروت فطلع أهل المدينة إلى الأمير علي وقابلوه فطيَّب خاطرهم وأعطاهم الأمان فحصلت لهم راحة البال والاطمئنان. لكن جعلوا على أنفسهم عشرين ألف غرش فداء لهم ولأولادهم وأرزاقهم. فحوّل الأمير علي عليهم السكمانية لأنهم كانوا طلبوا منه البخشيش فجعل لكل نفر منهم خمسة غروش فأخذوها منهم واما رجال الشوف فإنهم توجهوا إلى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوها وأخذوا جميع أرزاقها وحرقوها مجازاة لهم على حرقهم بلاد الشوف»(٢٦).

– إذن لا شيء جديد تحت شمس لبنان: معارك وتدمير وحرق القرى ورد كل تحية بأفظع منها... والسعي وراء البخشيش.

– لا شيء جديد تحت شمس لبنان، يا بني، لا شيء جديد ما عدا الأسلحة المتطورة. أما السلب والنهب والتنكيل بالخصم حتى بعد دحره والتدمير والحرق وفرض الخوّة أو البخشيش، فهذا جزء لا يتجزأ من فولكلورنا الوطني.

وقصة الدامور هي هي، اليوم مثل البارحة وغدًا مثل اليوم، فبحكم موقعها الاستراتيجي، يتحتّم عليها أن تساهم في كل حروب المنطقة وأن تتحمل القسط الأوفر مما تجرّه الحروب من ويلات وخراب فهي مفتاح النصر أو الهزيمة والاستيلاء عليها يتيح للغازي الآتي من الشمال أن يجتاح صيدا والجنوب دون كبير عناء، كما يتيح للزاحفين من الجنوب أن يطرقوا أبواب بيروت ويغزوا الشمال، سواء أكان اسم الفاتح رعمسيس فرعون مصر، أم انطيوخوس الكبير ملك سوريا، أم يونس المعني أمير لبنان.

– إن صحّ أنه كُتِب على جبين الدامور أن تشاهد مجازر كثيرة وأن يتخضب ترابها بدماء الشعوب على ممر العصور، فأعتقد أني سأسبقك على حلّ اللغز.

– أي لغز؟

– لغز أصل الكلمة.

٢٦) الخالدي، تاريخ لبنان في عهد فخر الدين الثاني.

ابتسم الشيخ وأجاب:

– أما قلت لك أن التاريخ والجغرافيا سيفرضان الحل.

*

كيف كان جدودنا يعيشون وعلى أي مورد كانوا يعتمدون لسد نفقاتهم ونفقات عيالهم؟ أول جواب يتبادر إلى ذهنك هو انهم كانوا يعيشون من الزراعة، ولكن فاتك أن سهل الدامور قبل أن جرّوا إليه قناة الري لم يكن يَصلُح إلا لزراعة الحبوب ولم يكن فيه غلالٌ تُذكر. فمتى شرعوا بريِّ السهل وما هو المورد الذي اعتمده الداموريون قبل ذلك وكيف كان النظام السائد؟

إن النظام الذي عاش جدودنا في ظله كان نظام الإقطاع وهو نظام صارم، جائر يصنّف الناس فئتين: فئة الذين يدفعون الخراج ويأكلون الكرباج[٢٧] وهم الأكثرية الساحقة وفئة الأمراء والمشايخ الذين يقبضون الخراج ويضربون بالكرباج وهم الأقلية المستبدة برقاب العباد. فالرأي السائد آنذاك كان ينادي بأن «الأرض وما عليها للسلطان»! فالسلطان هو نائب اللّه على الأرض واللّه عزَّ وجلّ هو المالك الأصلي وموزّع الأرزاق وقد أوكل إلى السلطان أمر توزيع الممالك على الملوك والأمراء وهم بدورهم يولون على المقاطعات الصغيرة أمراء صغار أو مقدمين أو شيوخ وهؤلاء يورثونها لأبنائهم من بعدهم، صدّق إذا شئت وإن أبيت، فالكرباج يتولى إقناعك.

«وقد أقطع الأمير حيدر شهاب الشيخ قبلان القاضي إقليم جزين وولّى على الشوفين بني جنبلاط وعلى المناصف بني نكد وعلى العرقوب بني عماد وجعل الجرد لبني عبد الملك...»[٢٨].

أما الدامور فيبدو أنّ القسم الجنوبي منها ظلّ ملك الشهابيين بينما النكديون استولوا على جهة الناعمة. فلو قُدّر لك أن تعيش في ذلك الزمن وأردت أن تقطن إحدى المقاطعات، لكان عليك أن تستأذن الأمير والشيخ صاحب الإقطاع فيعطيك محل بيت

٢٧) الريحاني، النكبات.

٢٨) «كما انه ولّى على كسروان آل الخازن وعلى بلاد غزير مشايخ بني حبيش وعلى الفتوح بني الدحداح وأسند الزاوية إلى مشايخ بني الضاهر والكوره لمشايخ بيت العازار، الخ...» [تاريخ لبنان، للدكتور مزهر.]

مؤلف من غرفة أو غرفتين تبنيه وتسقفه بجسور خشبية فتصبح أنت وعائلتك خاصًا بالأمير تدفع له كل سنة «مال عنقك». وكان للأمراء والمشايخ حق المصادرة و«البلص» يفرضون على أهل مقاطعاتهم الغرامة التي يستنسبونها لسد نفقاتهم ونفقات جنودهم. وبالرغم من كل تفننهم بأمور البلص، كانت النفقات تفوق الواردات فأخذ الإقطاعيون يبيعون قطعًا من أرضهم للعامة وأخذت بعض الأسر المارونية تشتري منهم قطع أرض في منطقة الدامور.

«ولما تولى الحكم الأمير منصور حيدر الشهابي (١٧٥٣–١٧٧٠) جرّ من نهر الدامور قناة تسقي البساتين إلى الجانب الشمالي منه»[٢٩].

حينئذ بدأت الدامور تنمو شمالاً ما بين الساقية المسمّاة «نهر بو دمعه» والوادي الصغير الفاصل ما بين الدامور وحارة الناعمه وأطلق على هذه القرية الجديدة اسم «معلقة الدامور». وفي سنة ١٧٦٧ حدث زلزال[٣٠] وخسفت الأرض بقرب نهر الصفا فطمر الخسوف قرى بكاملها وحبس الردم نهر الصفا عن مجراه عدة أيام ونهر الصفا هو، كما تعلم، المموّل الرئيسي لنهر الدامور.

– لكنك لم تقل لي ما هو المورد الذي كان يعتمد عليه الداموريون لكسب لقمة العيش قبل جرّ القناة إلى السهل؟

– لقد استنبطوا موردًا من الصعب أن يخطر على بالك، لكنه ينبع من الروح اللبنانية الأصيلة، ألا وهو الاحتيال المشروع: «dolus bonus» في لغة الشرع الروماني. كانوا يساعدون المسافرين على اجتياز النهر ويحتالون عليهم لينتزعوا منهم أجرة وافرة. أما تساءلت: كيف كان المسافرون يقطعون نهر الدامور قبل أن بُنيَ عليه جسر؟ إسمع ما يقوله المعلم ابراهيم العودة في تاريخه لولاية سليمان باشا:

«إن أهالي الدامور والمعلقة الذين هم بالقرب من النهر، في أيام الشتاء غالب أهاليهم ينزلوا ويستقيموا دايمًا على شاطئ النهر المذكور لأجل تقطيع المارين والعابرين وأخذ الأجرة الوافرة منهم. ولأجل جرّ منافعهم يستعملون الملعنة بعملهم، وذلك انهم يحملون الشخص الذي يريدون يقطعوا به النهر ولا يسيرون في المحلات الهينة التي تكون فيها المياه خفيفة، بل يسيرون في محلات عمق المياه، وهم يعرفون أراضي النهر

٢٩) أخبار الأعيان للشدياق.

٣٠) ويذكر التاريخ حدوث هزات هائلة سنة ١٧٥٩ استقامت نحو عشر دقائق ونتج عنها خراب عظيم وسقوط قسم من قلعة بعلبك.

وقياسها بالأصبع، وهكذا يصعّبون السلوك على ذاك الشخص وما يطلعوه من النهر إلا على آخر رمق من حياته إذ يوروه موت الغرق جملة مرّات وينشفوا دمه في عروقه ويوروه أن لولا حرصهم واجتهادهم معه لكان غرق ومات، ولأجل خاطره قبلوا المخاطرة بالموت على أنفسهم، وبهذه العملية يأخذون منهم أجرة وافرة، ومهما أعطوهم فلا يرضوهم...»[٣١]

– التحايل والكذب ملح الرجال!

– حتمًا! إن التحايل والغش هما ردة الفعل الحتمية التي يواجه الشعب بها نظام الإقطاع. فهؤلاء الذين «يأكلون الكرباج ويدفعون الخراج» لا يستطيعون أن يفوا ما عليهم لصاحب المقاطعة وأن يطعموا عيالهم إلا إذا رشوا على لقمة العيش شيئًا من ملح الرجال. فلا عتب على أجدادنا إذا استعملوا «الملعنة بأعمالهم» كما يقول المؤرخ. فثمة ملعنة مشروعة يتسلح بها الكادحون للدفاع عن كيانهم.

*

أول بيت بُني ليس في الدامور بل في معلقة الدامور عمَّره صابر البستاني بعد أن رحل من بكشتين وابتاع من الأمير حيدر شهاب قطعة أرض في محلة «الجديدة» شمالي قرية الدامور القديمة[٣٢] حيث شيَّد ثلاثة أقبية عقد وفوقها «علية»: هذا ما أكدته لي إحدى حفيداته وقالت ان البيت الثاني بناه محفوظ محفوظ (من أسرة السلاطين). ثم تبعهما بيت القرداحي وأخذت الأسر المسيحية ومنها أسرة عون وأسرة الغريب وأسرة عقل تنزح من القرى المجاورة مثل البوم وكفرمتى وغيرها إلى معلقة الدامور وكان ذلك في مطلع القرن الثامن عشر. والعادة عند الموارنة تقضي حيثما نبتت قرية صغيرة بأن يسرعوا إلى تتويجها بمعبد وهكذا فعل أهل المعلقة إذ شيدوا كنيسة مار الياس واندمجت الدامور بالمعلقة فصار لها شفيعان: مار ميخائيل ومار الياس. هل زرت الكنيستين؟

– طبعًا، لقد زرتهما أيام كانت الدامور تحتفل بأعياد قديسيها.

– هل تمعنت في الصورتين: صورة مار ميخائيل وصورة مار الياس؟

---

٣١) ابراهيم العودة، تاريخ ولاية سليمان باشا، نشرة الخوري قسطنطين الباشا المخلصي (صفحة ٢٠٩).
٣٢) سبق القول ان قرية الدامور القديمة تكوّنت من كنيسة مار ميخائيل وبعض البيوت المنتشرة حولها وهي أقدم من المعلقة بنحو قرن، ثم بنى أهل المعلقة كنيسة مار الياس على أرض وهبها آل القرداحي.

– ربما.

– أما لاحظت شيئًا غريبًا؟

– لا. لم ألاحظ شيئًا غريبًا.

– أما لفت نظرك وجه التشابه بين القديسين؟

– وجه التشابه؟ دعني أفكر قليلاً... ربما تريد القول ان الاثنين يشهران سيفًا؟

– أحسنت! ان الاثنين مجاهدان يشهران سيفيهما بوجه الشر ويوفقان بين القداسة والبطش بالعدو. أتعتقد أنّ اختيار الداموريين لهكذا شفاعة كان وليد الصدفة.

– هذا ما أظنه. وأنت؟

– أما أنا فأرى في هذا الاختيار تعبيرًا عن حاجة في النفس. إن الأحداث التي شهدتها وعاشتها الدامور عند نشوئها كانت مأسوية: فبعد انقراض المعنيين، أخذت عساكر الأكراد بدعوة من الجزّار تعبث في البلاد وتهاجم القرى اللبنانية فتقتل وتغتصب وتنهب وتحرق... والنكبات تتوالى على البلاد من زلازل وهزّات إلى غزوات الجراد إلى تفشّي داء الطاعون. ولعل النكبة الكبرى كانت انقسام الإقطاعيين إلى أحزاب وفرق تتنابذ وتتحارب فتمزّق البلاد وتنشر الفوضى. فلا تكاد تمر سنة إلا ويهرع اللبنانيون لمقاتلة بعضهم بعضًا، منقادين انقيادًا بهيميًا وراء زعماء تقليديين دأبهم الفتك والنهب والتحاسد وهمهم الاحتفاظ بالنفوذ والجاه والثروة لهم ولأبنائهم من بعدهم. والفلاح اللبناني شأنه شأن الأرض التي يعاملها فهو شيء لا شخص، شيء يخص صاحب المقاطعة ويسوقه أميره أو شيخه إلى الحرب سوقًا، بضرب الكرباج إذا اقتضى الأمر فانتماؤه إلى الأسرة الإقطاعية المولاّة على بلده كان يحجب انتماءه إلى الوطن. أما الداموري فهو من طبعه لا يحب القتال، لا يحب القتال لسببين: الأول لأنه يحبّ الأرض ويحبّ الحياة وقد أتى إلى هذه البقعة الساحلية ليحيي أرضًا ميتة، يُحييها بعرقه وبمياه الاله دامور، لا بدماء أبناء الناس وأبنائه. والثاني لأنه ماروني نزح إلى مقاطعة درزية يتولى عليها المشايخ النكدية فما له وللحرب؟ إنما في هذا الجو المشحون بالاضطرابات والنكبات، لا بدّ له من شفاعة بعض المحاربين: شفاعة سماوية يتولاها مار ميخائيل ومار الياس شاهري السيوف وشفاعة أرضية يؤمنها مشايخ بني معروف والحق يقال ان المشايخ النكدية كانوا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن حماية الدامور وكانوا يتحسّسون عِظَم مسؤوليتهم

ويعطفون عطفًا خاصًا على أهل الدامور والناعمه فهم الذين وهبوا للرهبانية البلدية الأرض التي بُنيَ عليها دير مار جريس الناعمه سنة ١٧٥٣ م. كما ملّكوا الرهبان أرض «جل البحر» الممتازة[٣٣].

وهكذا تعوَّدَ الداموريون منذ القديم أن يتكلوا على الشفعاء فيما يتعلّق بضمان أمنهم، وهذا شيء مؤسف. كثير منهم كانوا يرددون أثناء حصار الدامور الأخير: نحن بحماية مار الياس! نحن بحماية السيدة، والصواريخ تنهال على الكنائس.

— ألا ترى، يا شيخي، أنّ داء الشفاعة والاتكال على الشفعاء هو مرض مزمن وعام في بلادنا؟

— صحيح. وهذا المرض هو أيضًا من رواسب النظام الإقطاعي لكنّهم في بعض المناطق استطاعوا أن يتغلّبوا عليه بينما الدامور لا تزال تتوسَّل.

*

شفعاء الدامور الأرضيون أي المشايخ النكدية كانوا بحالة حرب دائم مع عساكر الجزّار وكثيرًا ما قطعوا عليهم الطريق ونصبوا لهم كمينًا عند مصب نهر الدامور في ذلك الموقع الاستراتيجي الذي أعدَّته طبيعة الأرض ليكون مسرحًا للتصادم وإراقة الدماء.

«ففي سنة ١٧٧٥ أمر الأمير يوسف الشهابي المشايخ النكدية أن يكمنوا جنوبي نهر الدامور في أرض السعديات لمحاربة عسكر الجزّار عند مروره من بيروت إلى صيدا. فلما أقبل العسكر عليهم شنوا عليه الغارة وأطلقوا الرصاص، فانقضّ عليهم العسكر وألعب فيهم السلاح فكسرهم ومزّقهم وجندل مقدامهم الشيخ أبا فاعور وقبض على ولده الشيخ محمود وعلى الشيخ واكد وسقط الشيخ بشير جريحا بين القتلى لا حيًّا فيرجى ولا ميتًا فيُنعى وغنم العسكر مالهم وظل سائرًا في طريقه إلى صيدا... وبعد انفضاض الواقعة مرّ قوم من هناك فرأوا الشيخ بشير صريعًا بين القتلى معرّى ومشرفًا على الموت فأقاموه وأخذوه إلى دير القمر وعالجوه فبرأ»[٣٤].

«وفي سنة ١٧٩٠ كتب الجزّار إلى الأرناوط الذين في بيروت أن يحضروا إلى صيدا، فلما بلغ المشايخ ذلك كَمَنُوا لهم برجالهم في السعديات جنوبي نهر الدامور

٣٣) يقول الشيخ عارف النكدي ان زعماء بني معروف تبرعوا للرهبانيات المارونية بأكثر من عشرة أديرة وكنائس منها دير مشموشة الذي ساهم ببنائه الشيخ بشير جنبلاط.
٣٤) عن أخبار الأعيان، للشدياق.

وعندما أقبل الارناوط عليهم ثاروا بوجوههم وأشعلوا نار الحرب فقتل من الارناوط نحو مائتي رجل»[٣٥].

وفي أوائل القرن التاسع عشر على عهد الأمير بشير الكبير، كان الأمراء من آل شهاب وآل ارسلان والمشايخ النكدية لا يزالون يملكون أرضًا وبيوتًا للسكن في الدامور وقد وقعت سنة ١٨١٨ جريمة مروعة في المعلقة بطلها أحد الشهابيين:

«في سنة ١٢٣٤ هـ. أي ١٨١٨ م.، في شهر نيسان توجه الأمير حمود والأمير حيدر ولدا الأمير منصور شهاب إلى قرية المعلقة التي في الدامور، فسار إليهم الأمير حسن ولد الأمير حمود ومعه سبعة أنفار من أتباعه وبحال وصوله إلى عند والده ترحَّب به وأكرمه. وأما هو فكان خاطر في نفسه الخيانة والغدر بقتل والده وإخوته وعمه ولم يكن أسباب توجب لذلك. ومن بعد جلوسه عند والده وعمه، أطلق القرابينا على غفلة على عمّه، فلم تصب منه سوى رجله. فخرج هاربًا إلى خارج البيت فارموا عليه الرصاص وقتلوه. أما الأمير حمود، عند نهوضه، ضربه ولده الأمير حسن بسكين في صدره وقوسه أحد الأتباع فقتل. وعندما كانوا منشغلين بقتلهم، هربوا أولادهم واختفوا في بعض بيوت القرية... أما الأمير حسن وأتباعه فركبوا الخيل وهربوا قاصدين بلاد حوران»[٣٦].

— يا لسخرية القدر! دماء ولدَي الأمير منصور تسفك على أرض الدامور وهو أول من جرَّ لها الماء لتسقي سهلها!

— لا تقل: سهلها، بل: سهلهم، فأرض السهل في ذلك الزمن لم تكن ملك أهالي البلدة بل ملك الأمراء والمشايخ وكان أجدادنا يعملون فلاحين عندهم. ونحن أولاد هؤلاء الفلاحين تحولنا إلى بورجوازيين صغار بحكم دينامية التاريخ.

— صحيح، ولكن كيف يعقل أن يغدر هذا الأمير الشاب بوالده وبعمه دون سبب موجب. لا أستطيع أن أصدق المؤرخ.

ابتسم الشيخ ابتسامته الكئيبة المعتادة وأجاب:

— يا بني، أنت أستاذ وربما دكتور في مادة ما. لكن تعليقاتك تبدو لي أحيانًا بمنتهى السذاجة. لا تستهجن شيئًا ولا تسل عن سبب موجب ولا تقل كيف يعقل. فالتاريخ لا يسيِّره العقل، إنما الأهواء والمصالح والصدف. أيعقل أن ينقسم أعيان لبنان إلى قيسي

٣٥) المصدر نفسه.
٣٦) تاريخ لبنان للأمير حيدر شهاب.

ويمني فيتناحرون ويتذابحون ويخرّبون بلادهم وأغلبهم لا يمت بأدنى صلة لا إلى قبائل اليمن ولا إلى قيس عيلان. أيعقل أن ينقسم نصارى جبل لبنان إلى جنبلاطي ويزبكي ويظلّو على مدى العصور متفرّقي الكلمة تتقاذفهم عوامل التحزبات السخيفة؟ واليوم أيعقل أن يقدم شبابنا المثقف على هذا الانتحار الجماعي الذي نشاهده بأعيننا فيهجّرون السكان الآمنين ويقتلون الأطفال والنساء ويتسابقون على السلب والنهب ويدمّرون وطنهم وهم ينشدون بحماس: «كلنا للوطن، للعلى، للعلم...» إن العقل هو عدو التاريخ رقم واحد. التاريخ مرآة لحياة الشعوب وحياتنا نسيج من السخافات والأحلام الجنونية. تَذَكَّر ما استخلصه فولتير من درس التاريخ: «إن تاريخ الأمم ليس سوى قصة غرق كبير، أما الناس فشعارهم...»

عندئذ قاطعته بحدّة وقلت:

– هذه فلسفة انهزامية فاسدة، هناك فلاسفة يقولون ان تاريخ الأمم هو ارتقاء نحو مزيد من العدالة والخير وان قصة الإنسانية ليست قصة غرق بل ملحمة رائعة يتصارع بطلها مع الجهل والفقر والمرض والموت ويتقدم عبر الحروب والثورات والكوارث نحو نصر أكيد.

– آمين، يا بني، آمين! لكن الملحمة التي عاشها الداموريون طيلة ثلاثة قرون انتهت بهزيمة مروعة لا بنصر رائع.

– قصة الدامور لم تنتهِ بعد، يا شيخي.

– آمين، يا بني، قد أميل إلى تصديقك إذا أتانا الخبر بأن السنديانة لا تزال شامخة خضراء هناك حيث سقط لي أعزّ ما كان لديّ.

*

المحامي الصغير سارق البيض كان قد عاد من الملعب منذ حين ووقف ينصت إلى الحوار الدائر بيني وبين جده. كلمة «ملحمة» استرعت انتباهه وأشكل عليه فهمها فسأل جده مستفسرًا:

– أكان الداموريون كلهم، يا جدي، فاتحين ملحمة ويعتاشون من بيع اللحم؟

– الملحمة تعني هنا، يا جدي، قصة بطولية يتصارع أبطالها مع الجبابرة ويقهرونهم بعون اللّه.

– وما هي البطولات التي سجلها جدودنا؟ لم ترنا منها سوى أنهم كانوا يقطّعون المارّة عند وصولهم إلى النهر و«يزعبرون» عليهم...

فقلت ضاحكًا:

– إنّ حفيدك على حق، يا شيخي. أين البطولات وما هي الملحمة؟ لم تذكر لنا من أعمال الداموريين الأوائل شيئًا يُشتمّ منه رائحة البطولة.

أجاب الشيخ:

– إنّ أولى بطولاتهم هي إقدامهم على السكن في تلك البقعة الساحلية المعزولة المعرّضة منذ القديم لهول المعارك ثم تكمّشهم بتلك الأرض رغم البلايا والنكبات والمعارك التي توالت على المنطقة ومثابرتهم على تحويل المستنقعات والأدغال إلى بساتين زاهية زاهرة. فمنذ أن جرَّ الأمير منصور قناة لريّ السهل، انصرف الداموريون بكل حيويتهم إلى أعمال الزراعة، وأولها زراعة التوت وتربية دود القزّ. لقد سبق وقلنا ان فخر الدين المعني وجّه عناية خاصة إلى زراعة التوت وصناعة الحرير فما لبث الداموري أن صار من أمهر مربّي دودة الحرير وأكبر دليل على ذلك أنّ محمّد علي باشا، لما أراد إدخال تربية القزّ في بعض نواحي مصر، استقدم قزازين[*] من الدامور ومن برج البراجنة. وكان فخر الدين قد شجَّع أيضًا زراعة قصب السكر فما لبث سهل الدامور أن أعطى أجود نوع من القصب السكري حتى ان الباعة لا يزالون في أيامنا هذه ينادون: «داموري يا قصب!» ترويجًا لبضاعتهم. وهكذا يتضح لنا أن الداموري كان دائمًا في الطليعة، لا يرضى لنفسه في كل عمل يباشره إلا أن يتبوّأ المرتبة الأولى. وقد اكتسب بنشاطه وجودة إنتاجه تقدير المشايخ النكدية والأمراء الشهابيين والارسلانيين. ولو قابلنا بين وضع الفلاح الماروني في المقاطعات المارونية وبين وضعه في الدامور لاتضح لنا أنّ وضعه في الدامور كان أفضل من وضعه هناك: ففي كسروان والمتن مثلاً كانت ملكية الأرض والبيوت تعود في غالب الأحيان إلى المشايخ من آل الخازن وحبيش والدحداح وغيرهم وكان على الفلاح أن يركع ويقبل يد شيخه وأن يقدم له الهدايا والخدمات الكثيرة على سبيل السخرة عدا ما يترتب عليه من ضرائب فكان يشعر بأن المشايخ يستثمرونه ويستعبدونه ويحتقرونه، ما أدى إلى عامية انطلياس وثورة طانيوس شاهين الشهيرة. أما

*) مُربّي دودَ القزّ

الفلاح الداموري فسرعان ما تحوّل إلى مَلاّك صغير يملك بيته و«جداراته» وأخذ يشتري من الأمراء والمشايخ قطعًا من تلك الأرض التي أحياها بكدّه فكان محفوظ الكرامة، مرفوع الرأس لا يشعر بربق العبودية فمناخ الحرية كان يزيده نشاطًا وتمسّكًا بأرضه وقد عمل الداموريون على تحسين حالة القناة ومدّوا لها فروعًا لجهة الشمال حتى صارت تروي القسم الأكبر من السهل[٣٧]، فعمرت تلك البقعة وصار الفدان يعطي أضعاف ما يعطيه في المناطق الأخرى[٣٨]. لا شك أنّ الفلاح الداموري كان يئن تحت ثقل الضرائب الباهظة، شأنه في ذلك شأن سائر الفلاحين في لبنان. فعلى عهد المعنيين مثلاً كان على الفلاح الشوفي أن يؤدّي ثلث الغلة إلى الأمير وكان عليه أن يدفع رسمًا معلومًا عن كل شجرة مثمرة وعن كل رأس غنم أو ماعز أو بقر[٣٩] وقد ساءت حالة الفلاح على عهد الأمير يوسف الشهابي حتى صار ٩٠ بالماية من مدخول الحرير يذهب إلى الأمراء والمشايخ فلا يبقى للفلاح إلا ١٠ بالماية[٤٠]. في جوار صيدا وفي عكّار وفي غيرها من المناطق الفقيرة هجر القرويون أرضهم لأنّها لم تعد تردّ عليهم ما يكفي لتسديد الضرائب. أما الداموريون فظلوا ملتحمين بأرضهم، صارفين أقصى جهودهم لزيادة الإنتاج، ما أتاح لهم ليس فقط أن يسددوا الضرائب بل أيضًا أن يوفّروا بعض المال ليشتروا من الأمراء ويوسّعوا دائرة أملاكهم.

أما تقطيع المارّة فبقي بعض الأهالي يقومون به في فصل الشتاء إلى أن بادر الأمير بشير بأمر من الوالي سليمان باشا العادل لبناء جسر على نهر الدامور سنة ١٨١٣ م.[٤١]

---

٣٧) تمَّ ذلك بمسعى رئيس بلدية الدامور حين ذاك: جوزف بطرس هيكل.

٣٨) ورد في تقرير نشرته مجلة المشرق للمهندس إميل خاشو أن الفدان في سهل الدامور كان يعطي عشرات أضعاف ما كان يعطيه في مصر على زمان الباشاوات.

٣٩) عن كل شجرة مثمرة: سحتوت (أي ٦ فلوس) وعن كل رأس غنم أو ماعز سحتوت، وعن كل فدان بقر: أربع محابيب ونصف وجلود المواشي تعود حكمًا للأمير ولا يسمح للفلاح باقتناء أكثر من ٣ فدادين، [عن كارالي: فخر الدين الثاني أمير لبنان.]

٤٠) عادل اسماعيل: «تاريخ لبنان».

٤١) ورد في تاريخ لبنان للأمير حيدر أن بناء الجسر تم سنة ١٨١٤. أما ابراهيم العودة فيعطي سنة ١٨١٣. وقد كلف البناء مائة ألف قرش واستغرق شهرين على أيدي نحو ماية وخمسين عاملاً وكان الجسر مركبًا على ٦ قناطر لكنه لم يستقم طويلاً (نحو ١٠ سنين) ثم سقطت قناطره وانهدمت بسبب قوة الحامولات ويزعم ابراهيم العودة أن عمار الجسر لم يرق الداموريين «لأنه أضاع عليهم إيرادات جسيمة تعلموها من الآباء للأجداد...» وانهم ساعدوا النهر على هدمه باقتلاعهم بعض الحجارة من القناطر. ورد في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى أن أحد الأمراء التنوخيين المدعو ناصر الدين الحسَين سعى بإنشاء جِسر على نهر الدامور قبل الأمير بشير بمئات السنين.

والحق يقال ان عملهم هذا جدير بالتقدير والإعجاب فطرقات لبنان كانت في تلك الأيام في حالة يرثى لها: كلها «طرقات مكارية» كما تقول العامّة وكان المسافر في فصل الشتاء ما بين صيدا وبيروت يعاني الأهوال من كثرة الأوحال وتدفّق السيول والهول الأكبر كان عبور نهر الدامور. فهذا النهر كان في القديم أشرس وأقوى بكثير مما هو اليوم والدلالة على ذلك متوفرة يكفينا منها شهادة المؤرخ الذي اتهم الداموريين الأوائل «بالملعنة» وبالتحايل على المسافرين فهو يعترف في الفصل ذاته انه «لا تمضي شتوية إلا ويغرق في ذلك النهر جملة خلائق بسبب عظم حملاته وشدة قوة مياهه... بما انه نهر كبير تنصب فيه جملة عيون فينزل بقوة عظيمة من الجبل... ويحصل منه للعابرين أذيات بليغة...»

فلو قُدِّر لي أن أعيش في ذلك العهد وأن أشارك أجدادنا في عملية تقطيع المارّة لأوقفت ابراهيم العودة عند وصوله إلى نهر الدامور متوجِّهًا إلى بيته الدافئ في صيدا وأجبرته على الترجل وعلى الغوص معنا في النهر والمطر ينهمر علينا والصقيع يكاد يجمّد الدم في عروقنا والمياه المندفعة بسرعة جنونية تكاد تجرفنا مع التيار لعلّه ارتدّ إلى الهدى وقدَّر حق قدرها بطولة هؤلاء الفلاحين الذين يجازفون بحياتهم ويركبون الأهوال خدمة للعابرين.

ومن بطولة أجدادنا تجنّبهم الانجراف في التحزبات البغيضة التي كانت تمزّق البلاد في تلك الحقبة. فابتداء من سنة ١٧٦٢ انقسم أعيان البلاد إلى حزبين متناظرين: جنبلاطي ويزبكي[٤٢] وكان الأمير منصور الذي جرّ قناة الري للدامور يناصر علي جنبلاط بينما أخوه الأمير أحمد شهاب كان يناصر عبد السلام العماد زعيم اليزبكيين

«هذه نسخة جواب كتبه ناصر الدين الحسين عن مرسوم ورد عليه من نائب الشام، المدعو طغن دمر، سنة ١٣٤٤ م. يتضمن الأمر بعمارة جسر نهر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت، لما يقاسي السفّارة فيه من المشقّة والعطب... وفي إصلاح هذا الجسر حسنة عظيمة ساقها اللّه تعالى لتُسَطّر في صحائف مولانا ملك الأمراء.. و لم يبقَ في السواحل نهر مثل هذا النهر بغير جسر ويمرّ عليه كثيرون من الجبليّين إلى حَدّ البقاع.

وكان الأمير سجر الشجاعي رسم للدمياطي الذي تولّى صيدا وبيروت في أول الفتوح الأشرفي، بأن يُنشئ على نهر الدامور جسرًا. وكان الشجاعي عايَن مشقّته وهو عابر إلى بيروت. فلما عمّره الدمياطي، أقام الجسر سنتين وفي الثالثة أخذه السَيل وبقي خرابًا إلى أن رسمه المرحوم سيف الدين تنكز بعمارته فعُمِّر و لم يبقَ إلا بعض الشتاء فسقط من السيول وحمل الماء بعض حجارته إلى البحر. فسقوطه من جانب القبلي كان في المرّتين لضعف الأساس ومنع الماء عن تعميقه إلى الصخر كما في الجهة الشمالية...»

في هذه الصفحة من تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تبرئة من الاتهامات التي وجّهها ابراهيم العودة إلى الداموريين في قوله ان الداموريين ساعدوا النهر على هدم الجسر.

٤٢) جنبلاطي نسبة إلى آل جنبلاط، ويزبكي نسبة إلى آل العماد من سلالة يزبك بن العفيف.

فتنازعا النفوذ زمنًا طويلاً وتطرق هذا الانقسام إلى النصارى فانحاز الخازنيون إلى الحزب الجنبلاطي أما الدحداحيون والحبيشيون فقد مالوا إلى اليزبكي وسرى هذا الداء حتى عمَّ جميع الأسر اللبنانية وكان الفلاحون ورجال العامّة يتبعون صاحب المقاطعة وينضمون آليًا إلى الحزب الذي ينتمي إليه. أما الداموريون فيبدو أنّهم لم ينزلقوا في المناحرات الحزبية بل حافظوا على خط الاعتدال وعدم الانحياز صارفين أقصى جهودهم لتحسين إنتاج أرضهم وكسب ثقة الأمراء وصداقة الجيران مهما كان لونهم الحزبي حتى أصبحت الدامور مثال الانفتاح والتودد إلى الغرباء ولم يبقَ في الشوف قرية قريبة أو نائية إلا وفيها للداموريين أكثر من صديق.

هذه بعض رؤوس الأقلام عن الملحمة التي عاشها أجدادنا. واعلم، يا بني ان البطولة الحقيقية هي بطولة الجندي المجهول، بطولة هؤلاء الكادحين الذين يعملون بصمت في سبيل إنماء بلدهم مذلّلين الصعاب بجدِّهم ومثابرتهم.

من هنا مرّوا فبنوا بأيديهم البيوت والأقنية وشيَّدوا المعابد.

من هنا مرّوا فأقاموا العلائق الطيبة مع جيرانهم وأسّسوا الصداقات المتينة.

من هنا مرّوا فأحيوا أرضًا مواتًا وتركوها عامرة بالأشجار المثمرة بعد أن كانت سباخًا.

هؤلاء هم أبطال الملحمة الإنسانية الكبرى، يا بني. أما الذين لا يتركون من آثار مرورهم سوى مساكن مهدَّمة وقلوبًا مفجوعة، هؤلاء مهما صالوا وجالوا ولقنوا الناس دروسًا بالترويع، هؤلاء، مهما تباهوا بما سجلوا من انتصارات وهمية لا يعود الفضل فيها إلا لكثرة العدد أو لتفوّق السلاح، هؤلاء هم مزيّفو البطولة ولا يستحقون عند الشعوب الواعية سوى الازدراء واللعنة.

*

... ومن ثمار الانفتاح الداموري على العالم بأسره أقطف لك هذه النكتة رواها لي أحد أساتذتي لما كنت تلميذًا في كليَّة القديس يوسف. كم هو مقدارها من الصحة؟ لا أدري لكني أنقلها لك على ذمة الراوي.

قال: كان الداموريون وغيرهم من القرويين في لبنان على عهد الأمير بشير شديدي

الإعجاب بنابليون بونابرت وكانوا يرون فيه تجسيدًا لانتصار الثورة الفرنسية المنادية بالحرية والمساواة والأخوّة وقد عظم شأنه عندهم وزاد تحمسهم لبطولاته عندما دحر عساكر المماليك في موقعة الأهرام الشهيرة[٤٣]. من ذلك الحين صارت أخبار نابليون أكثر رواجًا في سهرات الشتاء من قصص عنتر وبني هلال وبات طيف هذا العملاق الأسطوري يلازم خيال الداموريين... ها هو يقترب من شواطئ لبنان. من يعلم؟ ربما رأيناه ينزل بجيوشه المظفرة على رمال خلده والدامور حاملاً مشعل الحرية فيحرِّرنا من الاستعمار العثماني ومن نظام الإقطاع. أحلام جميلة ومثيرة، لكنها ما لبثت أن تبخّرت عندما حلَّت الفاجعة واندحر نابليون في موقعة واترلو. وما ان وصل خبر الهزيمة لآذان الداموريين وتيقّنوا أنّ بطلهم المحبوب، بطل الثورة المنادية بالحرية والمساواة، أصبح أسير الإنكليز في جزيرة القديسة هيلانة حتى هاجوا وماجوا وأخذوا يتساءلون: أمن الشهامة أن يتركوه معزولاً في منفاه دون أن يهبّوا لإنقاذه؟ فتنادوا وتشاوروا وقرّروا أن يقوموا بمظاهرة صاخبة لمطالبة بريطانيا العظمى بالإفراج عن الأسير. وكانت القنصليات في ذلك الزمن تقوم مقام السفارات، فتجمهر الداموريون وزحفوا إلى صيدا حيث أخذوا يطوفون حول قنصلية الإنكليز وهم يصيحون:

«أو بتردّوا النابليون   أما بتثور الضيعه!»

لا شك أن قنصل بريطانيا ضحك كثيرًا في سرّه لسذاجة هؤلاء القرويين الذين كرّوا بشراويلهم النيلية و«مداساتهم» القذرة مهددين معربدين كأن غضبهم سيغيّر شيئًا في سياسة الدول العظمى، ونحن ايضًا ضحكنا كثيرًا لما قصَّ علينا أستاذنا هذه النادرة. لكني عدت وتمعّنت في مغزاها فتبيَّن لي أنّها تنمُّ عن وجود خميرة ممتازة في صدور هؤلاء الكادحين السذج لأنهم كانوا يشعرون في صميمهم أنّ قضية الثورة والحرية والقضاء على الأنظمة الفاسدة المتحجرة هي قضية كل فرد وان كل إنسان أبي حرّ متضامن مع الإنسانية جمعاء في نضالها من أجل التآخي والمساواة، وأن هزيمة أي شخص مجاهد في سبيل المُثُل هي هزيمة الإنسانية، فالمصيبة التي تحلّ بالنبلاء الكرماء تعنيني وتعنيك وتعني كل شهم كريم. فهل تضامن أحد في دنيا العرب مع أهالي الدامور الأبرياء عندما حلَّت بهم الكارثة وهل شعر أحد بأنّ قضيتهم تعنيه؟؟

٤٣) تموز سنة ١٧٩٨.

في سنة ١٨٢١ كان نجم الأمير بشير قد أشرف على الأفول وفي شهر تموز توجّه من بيروت إلى صيدا بعد أن رفض أهالي بيروت إدخاله إلى المدينة وطردوا أتباعه ورصدوا الأبواب بوجوههم. ولما وصل إلى نهر الدامور، بلغه وصول عسكر خصمه درويش باشا إلى صيدا قبله،

«فنزل الأمير في قرية المعلقة في الدامور، ومنها أبحر هو وأولاده وخدمه ليلاً على ظهر مركب فرنسي متجهًا إلى مصر»(٤٤).

وهكذا تكون الدامور مندمجة اندماجًا عضويًا في تاريخ أمراء لبنان الكبار فهي التي استقبلت فخر الدين عائدًا من منفاه ثم ودّعت الأمير بشير وهو ذاهب إلى المنفى.

*

عن السنديانة لا شيء... عاد صاحبنا ن. ع. من سفرته دون أن يتمكن من التوغل إلى قلب الدامور. نيسان ثانٍ يطل علينا ونحن لا نزال في حيرة. الطقس غائم، بارد، حزين. لقد طال انتظارنا. الأيام تفرّ بسرعة غير طبيعية. أحيانًا نسمعهم يقولون ان الحكومة تفكر بحل قضية الدامور. وأحيانًا يؤكدون أن الحل صار وشيكًا. متى؟ من يعلم؟ المسألة بحاجة لمزيد من التمحيص. فلنتركها «معلقة». دخل علينا م.ن. وبوجهه خبر غير سار. رفيقنا ب.غ. توفي في أحد المستشفيات حيث كان يتعالج على حساب الصليب الأحمر. سمح لنا الرئيس بدفنه في مقبرة صغيرة تخص الرهبنة. الجناز في كنيسة الدير كان بسيطًا ومؤثرًا. الرهبان اشتركوا كلهم معنا بالصلاة... في المقبرة، قبل أن نواري التابوت، أخذ الأب الرئيس حفنة تراب وذرّها على غطا التابوت بشكل صليب.

«أذكر، يا إنسان، أنك تراب وإلى التراب تعود!»

اغرورقت الأعين بالدموع. أما الشيخ فاعترته الرجفة وبدت على وجهه علامات يأس عميق... فهمتُ ما يدور في خلده فأمسكت يده وعدنا الهوينا إلى الغرفة حيث حاولت أن أخفف من كربته فقلت مداعبًا:

– لو متنا في الدامور لما توفقنا بخوري يجنزنا. رفيقنا هذا قد مات ميتة صالحة. وهذه المقبرة بقرب الدير لا شك أنه سيرقد فيها بسلام فهي لطيفة نظيفة تظللها الأشجار الجميلة وتزغرد فوقها العصافير.

---

٤٤) تاريخ لبنان للأمير حيدر.

فهزّ الشيخ رأسه وأجاب:

– صحيح. لكن التربة...

فقاطعته قائلاً:

– التربة من تراب لبنان.

فأجاب:

– صحيح. لكنني أشعر بأن تراب الدامور أخفّ على جثة أبنائها. أتعلم، يا صاحبي، أن بعض القبائل القديمة كانت تؤمن بأن الميت الذي لا يدفن في أرض عشيرته يبقى طيفه هائمًا، معذبًا، تائهًا على ضفة نهر الموت، لا يستطيع العبور إلى ضفة الأبد؟

عند المساء أتيته بزجاجتين من مشروبه المفضل وعدت أستفسر عن لغز الدامور، قلت مداعبًا:

– إذا حللته قبلك، ستدفع لي ثلاثة أضعاف ما دفعته ثمن الزجاجات.

فابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– حسنًا، شرط أن تعوّض الدولة.

الدامور أيام القائمقاميتين
(١٨٤٢-١٨٦١)

– بشيران طويا صفحة العهد الشهابي تاركين على رمال تاريخنا المائج آثار أقدام ملوّثة بالدم: بشير الكبير وبشير الصغير. الكبير سمل عيون أولاد عمه[٤٥] وسلبهم أملاكهم وغدر بصاحبه جرجس باز وانتزع من زعماء بني معروف ١٢ مقاطعة من أصل ١٤ و لم يترك لونًا من ألوان البطش والتنكيل إلا وبرع فيه، لكنه عرف بدهائه كيف يحيط كرسي الحكم بهالة من الوقار ويلجم أثناء حكمه نزعات التفرقة السياسية والطائفية.

– وما هو اللجام بربّك قل لي؟ قد يكون في ذكره فائدة لحسم الخلاف القائم اليوم بين محترفي السياسة؟

– حَسمَ النزاع بجمع الطائفتين الكبيرتين في شخصه الكريم.

يقول مؤرخنا الأستاذ يوسف يزبك ان بشير الكبير كان «نصفه مسلمًا وربعه مسيحيًا والربع الآخر درزيًا»[٤٦].

– عال! إذا أثبت التاريخ أن مثل هذا الجمع ممكن، فما رأيك بجعل مادة في دستورنا تنص بأنه على المرشح للرئاسة أن يجعل نصفه مسلمًا ونصفه مسيحيًا؟ ألا نخرج من مأزق الطائفية؟

– لا أظن.

– ولماذا لا تظن؟

– لأنهم في جدالهم البيزنطي سيختلفون على تعيين النصف العائد لكل طائفة. كل شيء يصبح موضوع جدل في بيت تنافرت قلوب ساكنيه.

غادر بشير الكبير جبل لبنان نهائيًا في تشرين الأول سنة ١٨٤٠ تاركًا البلاد في حالة تعيسة: الشعب يئن ويتململ تحت وطأة الضرائب الباهظة، الأمراء والمشايخ

---

٤٥) الأمير يوسف شهاب.

٤٦) أوراق لبنانية، عدد كانون الثاني ١٩٥٦، صفحة ٨.

يتأهبون لاسترجاع نفوذهم وامتيازاتهم، والدول الأجنبية، بالأخص انكلترا وفرنسا، تتنافس لبسط سيطرتها على المنطقة تحت ستار حماية زبائن كلٍّ منها. في كتاب أرسله يوسف بك كرم إلى المطران بولس مسعد نجد القطعة التالية: «لقد أصبحت أمورنا في هذه الأيام تابعة لإنكلترا وفرنسا... إذا ضرب أحدهم رفيقه تصير المسألة إنكليزية فرنسوية. وربما قامت قيامة انكلترا وفرنسا من أجل فنجان قهوة يهرقه على الأرض». دعاة التفرقة استغلوا هذا الوضع المتوتّر لإثارة الحزازات الطائفية فأخذ الجو يتلبّد بغيوم كثيفة منذرًا بقرب اندلاع الفتنة. في هذه الظروف الدقيقة، والبلاد بحاجة إلى رجل دولة داهية لينقذها من الكارثة، لم تفرز الأسرة الشهابية إلا رجلاً عاديًا فقذفه النظام الإقطاعي إلى مركز القيادة وسمّوه بشير الصغير.

في تشرين الأول سنة ١٨٤١ انطلقت شرارة الحرب الأهلية من دير القمر حيث حاصر الدروز بشير الصغير في سراياه ثم ألقوا القبض عليه وعرّوه من ثيابه وأهانوه. فتجمع نحو سبعة آلاف مسيحي في بعبدا وصمّموا على مهاجمة الشويفات ردًّا على إهانة دير القمر وامتدت الحريقة الطائفية إلى أكثر قرى الشوف والمتن وإلى مدينة زحله.

— والدامور، كيف كان وضعها في هذا الجو المكهرب؟

— حافظت الدامور بقدر ما استطاعت على رباطة الجأش وكانت، كما قلنا سابقًا، تحظى بصداقة المشايخ النكدية فلم يتحرّش جيرانها بها و لم تتعرض لا للحرق ولا للنهب. لكنك تعلم مثلي أنه يوجد في نفس كل لبناني وتر حساس فهو يشعر أنّ تضامنه مع سائر أفراد طائفته أمر يتعلق بشرفه، فعار على الرجل أن لا يهبّ لمناصرة أبناء طائفته في محنتهم، والأمور التي تمسّ بالشرف كان لها وقع عظيم في المجتمع القروي القديم. لذلك اعتبر الداموريون من واجبهم أن يناصروا أهل دير القمر. ويقول الشدياق في أخبار الأعيان:

«نهض من أهل معلقة الدامور والدبيه نحو مائتي مقاتل لمعونة نصارى دير القمر واشتبكوا في بيدر الرمل مع بعض مهاجمي الدير».

هذه الحوادث المؤلمة أدّت سنة ١٨٤٢ إلى شطر لبنان إلى قائمقاميتين: إحداهما درزية بزعامة الارسلانيين والأخرى مسيحية بزعامة اللمعيين. وكان الفاصل بينهما طريق الشام. وفي سنة ١٨٤٥ انقسم ساحل بيروت إلى شرقي وغربي فتولّى الأمير حيدر القسم الشرقي وتولّى الأمير أمين الساحل الغربي والفاصل بينهما طريق دير القمر.

ويبدو أنّ هذا الوضع الشاذ لم يزعزع إيمان الداموريين بأرضهم فلم تنزح عائلاتهم إلى بيروت أو كسروان كما فعل الكثير من العائلات المسيحية الواقعة في مناطق درزية و لم يطالب أهل الدامور بنظام خاص على غرار دير القمر. ووضع الشيخ قاسم أبي نكد بلدة الدامور تحت حمايته فلم تصب بأذى وبقيت علاقاتها مع الجيران علاقات طيبة. لكن الحمّى الطائفية ظلّت تستعر وتتصاعد حتى أصبح من المحال أن لا تسري العدوى إلى أهالي الدامور، ولاسيما أن أحد أبناء البلدة وهو المطران طوبيا عون كان غائصًا «لفوق أذنيه» في مشاكل السياسة اللبنانية بصفته مطران بيروت ووكيل البطريرك الماروني. وكان قنصل بريطانيا يتهم المطران طوبيا بنشر الدعايات المقلقة وفي تقرير أرسله إلى «لورد رَسل» نقع على الأسطر التالية:

«إن الدعاية الخبيثة التي بثها المطران طوبيا وأعوانه أصبحت معلومة لدى العموم وهي تجعل استتباب الأمن أمرًا مستحيلاً إلا إذا أبعد هذا المقلق عن بيروت»[٤٧].

ومن الثابت تاريخيًا أن المطران طوبيا كان يشدّد عزائم النصارى ويعمل جهده لتنمية قدرتهم الدفاعية، فأنشأ في بيروت رابطة لشبّان الموارنة، ما حمل قنصل بريطانيا، وهو المشهور بميله إلى الطائفة الدرزية، على نعت المطران الداموري بالمقلق وبناشر الدعاية الخبيثة.

«وفي أواخر نيسان ١٨٤٥ مر بالدامور نفر من الدروز يحملون ذخائر حربية من بيروت إلى الجبل فتصدّى لهم بعض شباب الدامور وناوشوهم في القتال قرب الناعمة فتراجع الدروز إلى قرب عرمون حيث أقبل دروز الغربَين لنجدتهم فانهزم النصارى إلى نواحي الناعمه ودخل الدروز دير الناعمه ونهبوه، فانحدر إليهم نصارى من عبيه وهجموا عليهم وأخذوا منهم ما نهبوه وقتلوا منهم نفرين»[٤٨].

هذه الشرارة ما لبثت أن حوّلت البلاد إلى أتون فامتدت الحريقة إلى المتن وإلى الجنوب وأقدم نصارى إقليم جزين بقيادة أبو سمرا غانم على حرق عدد من القرى الدرزية منها نيحا وباتر وعماطور ومرسته وبعدران، ويقول المؤرخ[٤٩]:

«وهذه عادة عندهم أن يحرق الغالب بيت المغلوب».

— إذن هستيريا الحرق أثناء الحروب الأهلية هي داء متأصّل في بلادنا؟

٤٧) عن تاريخ لبنان للدكتور يوسف مزهر.
٤٨) الشدياق: أخبار الأعيان.
٤٩) المصدر نفسه.

– نعم، داء نفساني موروث، يا بني. لا شيء يضاهي منظر منزل عدوّك تلتهمه ألسنة اللهيب، لا شيء يضاهي منظر مدينة تحترق برمَّتها محوّلة الليل إلى نهار، لتصعيد الهياج وإثارة العدوانية الوحشية الكامنة في أحشائنا. المقاتل ينتشي من هذا المشهد فيخيل له أن الحرب ليست سوى رقصة النار. وهكذا تأججت الأحقاد وتصاعد الهياج حتى بلغ الذروة سنة ١٨٦٠. ففي شهر أيار من تلك السنة أغار الدروز على عدّة قرى من المتن ومن ساحل بيروت منها وادي شحرور وبعبدا وعاريا وسِبنَيه فنهبوها وأحرقوا بيوتها وأخذت ألسنة اللهب الطائفي تمتدّ وتقترب من بلدتنا...

«ولما بلغ أهل الدبيه وغيرها من القرى المسيحية المجاورة للدامور ما جرى في تلك القرى المنكوبة، تولاهم الخوف وللحال نهضوا بعيالهم ومواشيهم إلى معلقة الدامور ليحتموا فيها. وما ان استقر بهم المقام حتى أتاهم خبر من المطران طوبيا عون ان الدامور، وهي بلده، أصبحت بخطر وحثَّ أهله وأصحابه أن يغادروها للحال ويأتوا إلى بيروت بطريق البحر. ولما لم يكن لديهم مراكب انتظروا الليل وقاموا بعيالهم ومتاعهم إلى جانب الشاطئ وعند طلوع القمر ساروا نحو بيروت. عرف بقيامهم رجل درزي من الناعمه يدعى حسن دركوب، فأرسل يخبر حسين يونس من دير قوبل وهذا أخبر أهل بشامون ومنها اتصل الخبر بعرمون فتجمع نحو ١٥٠ منهم وكمنوا في غابة قريبة من الطريق. فلما اقترب النصارى منها أطبق عليهم الدروز والتحم الفريقان في موقعة هائلة. فسمع دروز الجبال صوت البارود فهبطوا إلى مكان الموقعة وأحاطوا بالداموريين الذين استبسلوا في الدفاع عن أنفسهم وعيالهم طول ذلك الليل. وكان صراخ الأطفال وولولة النساء وصوت البارود يزيد في هول المعركة التي ظلت دائرة إلى أن انبلج الصباح فتراجع المهاجمون إلى أماكنهم واستمر أهل الدامور والدبيه في سيرهم إلى أن بلغوا بيروت وهم في أشد حالات البؤس»[٥٠].

– والبلدة هل أحرقوها؟

– والعجيب الغريب أن أحدًا لم يقتحم الدامور وأنّ بيوتها لم تحرق ولم تنهب. وأغلب الظن أن الأهالي الذين نزحوا إلى بيروت كانوا ضحية الإشاعات المغرضة. هذه الموقعة التي وصفها لنا المؤرخ ابكاريوس جرت في أواخر أيار، على الأرجح في ٢٩ منه وفي حزيران وقعت مجازر حاصبيا ودير القمر وزحلة.

– ولِمَن يعود الفضل في إنقاذ الدامور من تلك الحرائق الجنونية؟

٥٠) «نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان»، لابكاريوس.

– الفضل يعود إلى حكمة الزعامات الدرزية في منطقة الشحّار[٥١] ولاسيّما مشايخ أبي نكد وآل ناصر الدين. يقول السيد نجيب البعيني: في عام ١٨٦٠، عام الفتنة الطائفية، جال الأمير علي ناصر الدين على قرى الشحّار مُلقيًا الحُرم على كل درزي يعتدي على مسيحي وواضعًا الحد على كل مسيحي يعتدي على درزي وهكذا مرّت أحداث الستّين دون أن تشهد منطقة الشحّار قتالاً أو اقتتالاً أو نزاعًا، حتى ان قائد الحملة الفرنسية التي نزلت إلى كفرمتى للفصل بين المسيحيين والدروز دُهش للسلام المخيّم على البلدة والوئام القائم بين دروزها والمسيحيّين وعندما أبلغه كاهن القرية أي دَور قام به آل ناصر الدين، توجّه الضابط الفرنسي إلى منزلهم في زيارة شكر وتقدير ثم عاد هو وجنوده من حيث أتوا[٥٢].

– مَن لنا بمثل هؤلاء العقّال؟

– مهما اتّصفت القيادات بالتعقّل والحكمة، لا بُد من وقوع حوادث جماعيّة موسّعة قد تعمل على ترويع العامّة وتنمية القلق في النفوس، كما حدث في عبيه ذاتها، قاعدة مشايخ أبي نكد في الشحّار حيث كان الأميركان قد أقاموا إرسالية بروتستنتية. ففي ٢٠ أيار من تلك السنة، عمد درزي إلى الأخذ بالثأر وقتل مسيحيًا وهذا ما حمل نصارى عبيه على الهرب إلى الدامور، قفزًا من جَل إلى جَل، عبر الكروم. بذلك يشهد الحادث التالي كما رواه المستر هنري جسب Henry Jessup أحد المرسلين الأميركيين في كتابه «Fifty three years of Syria» الصادر في نيويورك سنة ١٩١٠ وقد نقله عنه الدكتور كمال الصليبي في «تاريخ لبنان الحديث»: «ويوم السبت في ٢٦ رفعنا علمًا أميركيًا فوق دار الإرسالية تحسُّبًا لهجوم قوات من حوران على المنطقة إذ لم تكن فيها الأحراج حينذاك. ويتّضح من كل ما تقدم أن الدامور كانت قاعدة مهمّة وملجأ لنصارى القُرى المجاورة وكانت تحظى بحماية مشايخ أبي نكد فخشي الدروز اللبنانيين وكان الأهلون جميعًا في حالة خوف وكانت جماعات مسلّحة من الدروز، خيّالة ومشاة، تزحف من قرية لأخرى وهي تترنم بأناشيدها الحربية ويوم الأحد في ٢٧، ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة فكان دَوري في إلقاء الموعظة. تطلعتُ إلى الوجوه أمامي فإذا هي قلقة وما إن بدأتُ الخدمة حتى تصاعدت طلقات نارية من مكان قريب يتبعها صراخ. فوجَم

٥١) الشحّار: منطقة تمتد من عبيه حتى السعديات قرب الدامور جنوبًا والناعمه شمالاً.
٥٢) نجيب البعيني في جريدة «النهار» تاريخ ١٦/٦/١٩٩٠ ص٨.

المصلّون وإذا برجل يركض خارج الكنيسة ويصيح: قتِل أبو شهدان. قوموا للهريبة. فلم تكن إلا لحظة حتى خلت الكنيسة. وكان الإنجيلية والموارنة والروم الأرثوذكس قد اتفقوا فيما بينهم على الهرب جماعة واحدة حالما يُقتَل أول مسيحي في عبيه نزولاً على سفح الجبل إلى المعلقة (الدامور) ومن هناك إلى بيروت. فأسرع النصارى الذكور إلى الهرب قفزًا فوق الجدران ومن جَل إلى جَل عبر الكروم وأحراج السفوح والمنحدرات الصخرية متجنّبين الطرق العامة وفي الحال هرع قاسم بك (أبو نكد) برفقة بعض مشايخ الدروز إلى مستر كلهون (مرسَل أميركي) يشرح له جليّة الأمر فقال أن أبا شهدان في اضطرابات ١٨٤٥ قتَل درزيًا من البَنيه فتحيّن أهل القتيل فرصة سانحة للأخذ بالثأر وقال لي قاسم بك أنه يأسف أشد الأسف لما حصل ويكفل أن رصاصة واحدة لن تطلق في عبيه ولكن كفالته هذه جاءت متأخرة إذ لم يكن قد بقي في القرية من الذكور نصراني واحد فوق العاشرة من العمر أما الإناث فبقين لأن الدروز درجوا على عدم المساس بهن في الحروب».

– وهل أسفرت المعارك عن فوز أحد الفريقين؟

– حصيلة هذه الهستيريا كانت ١٥٠ قرية احترقت للفريقين وعشرات الآلاف من الضحايا والمنكوبين عند الفريقين...

– إذن في لبنان، التاريخ لا يسير إلى الأمام...

– «لا يسير» عبارة غير صحيحة، فهو يسير ضمن حلقة، أي يدور على ذات المحور فيعود كل بضع سنين إلى العقدة ذاتها، كأن روح الإقطاعية تتقمص من قرن إلى قرن في زعماء جدد. أتسمح أن نتوقف برهة ونقارن بين ما جرى آنذاك وما يجري في أيامنا؟ ألا ترى أن المسرحية بلبِّها هي هي، والأسباب هي هي:

* ضعف السلطة المركزية.

* مؤامرات الدول الأجنبية.

* زعامة بعض «المقاطعجية»[٥٣] وكلّ منهم يؤلف دويلة ضمن الدولة وهم غالبًا أشد غيرة على نفوذهم ومصالحهم منهم على الوطن الواحد والمصلحة العامة.

٥٣) المقاطعجية هم أصحاب المقاطعات، وتقول العامّة: «تمقطع بالناس» أي استبد وظلم.

* سذاجة الجماهير الشعبية وانقيادها وراء زعماء يضللونها بالأراجيف الدعائية ويستغوونها بفتح باب السلب والنهب على مصراعيه.

– لا شك أن وجوه الشبه عديدة ومذهلة إنما هناك فروقات جوهرية بين تلك الحرب وهذه، ففي حرب ١٨٦٠ لم يكن النزاع قائمًا بين يمين ويسار ولم تكن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تهدد الكيان اللبناني.

– كان الكيان اللبناني مهددًا من الاستعمار العثماني وقد أثبتت الوثائق مسؤولية الباب العالي في إثارة الفتنة الطائفية. أما مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ألا ترى مثلي أنه كان بالإمكان تسويتها بدلاً من تفجيرها، لو كانت الدولة موحَّدة والسلطة المركزية قوية؟

– ربما، والنزاع بين اليمين واليسار؟

– من البديهي أن مثل هذا النزاع في إطار دولة موحَّدة وسلطة مركزية قوية كان وجد حلَّه ضمن اللعبة الديمقراطية كما هي الحالة في معظم الدول. فماذا جنى اليمين أو اليسار من تهجيرنا وماذا حصدت المقاومة من خراب الدامور؟ إن تركيبة المجتمع اللبناني حيث رواسب الإقطاعية والطائفية لا تزال تتراكم وتتفاعل، هي التي تجعل كل المغامرات ممكنة وكل المؤامرات سهلة التنفيذ.

– ألا تعتقد أن الإقطاعية هي ثمرة الطائفية؟

– أنا أعتقد بالعكس أنه لولا الإقطاعية لتلاشت الطائفية وتبخَّرت. الإقطاعيون، ومن ورائهم حماة الأقليات، هم الذين يغذّون الطائفية بواسطة الأجهزة والمؤسسات الموكول إليها بث هذه الروح، فاللبناني في صميمه مركنتيلي أكثر منه طائفي. أما لاحظت كيف ان اللبناني ينعتق فجأة في المهجر من التعصب الطائفي وكيف ان المهاجرين اللبنانيين على اختلاف طوائفهم يتآلفون ويتضامنون؟ لماذا؟ أليس لأنهم يتحررون من مناخ الإقطاعية الإقليمية السائدة في مجتمعنا؟ والجدير بالملاحظة أن أصحاب الإقطاع كثيرًا ما كانوا يجرّون أتباعهم جرًّا إلى الاقتتال الطائفي والدليل على ذلك ما كتبه الزحليون سنة ١٨٤٥ إلى «أوجين بوجاد» Eugène Poujade قنصل فرنسا في بيروت:

«يؤخذ من الإفادات التي تلقيناها ما يثبت أن الدروز لم يأتوا لمحاربتنا إلا مكرهين من أصحاب الإقطاع، فإنهم يجبرونهم على ذلك بضرب العصي...»

٥٤) عن كتاب «المحررات السياسية والمفاوضات الدولية في سوريا ولبنان» للشيخين فيليب وفريد الخازن.

ووقعتُ في مجلة «أوراق لبنانية»[٥٥] على نصّ عريضة رفعها سنة ١٨٤٤ دروز جبل لبنان إلى الحكومة الفرنسية يقولون فيها:

«... ان أصل الخصومة التي صارت فيما بيننا وبين النصارى كان نشوؤها من «روز» قنصل الإنكليز[٥٦] لأنه قد دخّل في عقول البعض منا أنّ ما لنا راحة إلا بمحو النصارى وأن هذا رأي دولته. وقد قدم لنا إسعافيات وأشياء توجبنا لتصديق ذلك فانغشينا... وعين الحقيقة أن ما لنا صالح ولا راحة بالابتعاد عن النصارى، ومنذ أيام آبائنا وأجدادنا ما نحن عارفون ذواتنا إلا مثل الاخوة مع النصارى... نترجّى مراحمكم لا تتركونا بحالة هذا الخراب، لأن، من بعد الله، ما لنا سواكم، وأطال الله بقاكم للدوام.

في ٤ تموز ١٨٤٤ دروز جبل لبنان».

إن الاطّلاع على وثيقة تاريخية من هذا النوع أعاد إلى ذهني ما قاله أحد المستشرقين: «الطائفية «لزقة خردل» تضعها الدولة القوية على ظهر الدول الضعيفة لتجبرها على ملازمة الفراش».

والمذهل في المسلسل اللبناني أن أبطال الرواية يقفون واجمين أمام فداحة الخسائر التي تكبدتها البلاد من جرّاء تناحرهم فيقرعون صدورهم ندمًا مستغفرين ومعترفين بعظم الخطيئة ومعاهدين الله والوطن بعدم الرجوع إلى مثلها.

«أنتم حاسبينها ونحن حاسبينها وكلانا وقع فيها». بادر سعيد جنبلاط يقول لغندور السعد لما جاء هذا الأخير يزوره في حبسه. لكن لا تمضي فترة إلا وتراهم يعودون إلى أكل قَيئهم بشهية وتلذذ. والمذهل أنك تراهم ما بين فتنة وفتنة أو معركة ومعركة يتصافحون ويتفاهمون ويتنادمون ويتعانقون وفي ساعة استراحة المحارب، تسمعهم يتغزلون بمفاتن بلادهم وينشدون حلاوة العيش في ربوعها. يغنون الأغنية ذاتها، يغنّونها كلهم على ذات النغم الرتيب وبذات الحنين العميق إلى تربة الوطن.

«هيهات، يا بو الزلف... لبنان أحلى وطن... هيهات يا بو الزلف... لبنان أحلى وطن...»

---

٥٥) للأستاذ يوسف يزبك. (الأصل محفوظ في خزائن وزارة الخارجية الفرنسية.)

٥٦) الكولونيل روز قنصل بريطانيا في بيروت مؤسس مدرسة الكولونيل لورنس، كان من أدهى رجال السياسة وهو الذي سعى بالاتفاق مع تركيا إلى إقصاء الأمير بشير الثاني وإلى تقسيم لبنان.

هذا ما لا أستطيع أن أفهم، كيف أن اللبنانيين، بعد أن اكتشفوا حدودهم على حقيقتها، وبعد ان اختبروا مرارًا وتكرارًا إلى أين تجرّهم الحروب الأهلية يتناسون تاريخهم ويعودون بحماس وعناد إلى مباراة اللاغالب ولا مغلوب[٥٧].

أيُعقَل أن يكون الذين رفعوا العرائض إلى الدول الكبرى سنة ١٨٤٤ و١٨٤٥ مستصرخين ضمير العالم مؤكدين أن اللبنانيين، إنما ذهبوا ضحية مؤامرة بعض القناصل وان «لا صالح لهم ولا راحة بالابتعاد عن بعضهم» وانهم «منذ أيام آبائهم وأجدادهم يعيشون مثل الاخوة مع بعضهم البعض» رغم اختلاف الأديان والمذاهب، أيُعقَل أن يعودوا ويقعوا في الفخ ذاته سنة ١٨٦٠؟

هذا السؤال أتاح لي الفرصة لاثأر للمنطق من عبثية الشيخ، فقفزت على كلمة «أيعقل» وتكمشت بها وقلت ضاحكًا:

– وأنت، يا شيخي، أنسيت أنك منذ برهة حذّرتني من فخ المعقول واللامعقول وقررت أن لا دور للعقل في تاريخ الأمم لأن الأهواء والمصالح هي التي تسيِّر العجلة، فكيف تقع الآن في الفخ الذي حذرتني منه؟

– صحيح. لقد غلبتني. لكن لا بدّ من الاستغراب... أعتقد أني بحاجة إلى جرعة كي أستعيد صفاء ذهني.

قال هذا ووضع فكّ الزجاجة بين شفتيه وتناول جرعة فوق المعقول فانشرحت أساريره وعاد يحدثني عن الدامور.

*

---

٥٧) من بديهيات سياسة الدول العظمى في منطقتنا الإبقاء على التوازن بين الجناحين المسلم والمسيحي في لبنان وهي قادرة على ممارسة الضغوط الكفيلة بإعادة التوازن إذا طرأ عليه أدنى خلل.

الدامور على عهد المتصرفية
(١٨٦١-١٩١٤)

– أدعوك الآن إلى جولة ممتعة في سهل الدامور على زمن المتصرفية ولنجعلها في الربيع، في مطلع شهر أيار لتشاهد المعجزة التي حققتها الدامور...

وإذا بالمحامي الصغير، سارق البيض، يتنطّح سائلاً:

– ألا تسمح لنا، يا جدي، أن نرافقكم في الجولة؟

– لا بأس! لا بأس! تعالوا معنا.

– ألا تشرح لنا، يا جدي، بكلمتين أو ثلاثة ما هو زمن المتصرفية؟

– سمعًا وطاعة! على اثر حلول الكارثة بسنة الستين اجتمع ممثلو الدول العظمى مع ممثل السلطان في بيروت وأقروا دستورًا جديدًا للبنان الصغير (وقد سمّوه «الصغير» لأنّ بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع والجنوب سُلِخت عن الجبل...) وأصبح حكم الجبل بموجب هذا الدستور خاضعًا لمتصرف مسيحي غير لبناني يعيِّنه السلطان ويساعده مجلس إدارة من اثني عشر عضوًا يمثلون جميع الطوائف بالنسبة لعدد نفوس كل منها، فنعِمَ لبنان تحت حكم المتصرفين بنعمة الهدوء والأمان تحت رعاية الدول الموقعة على البروتوكول[٥٨] وتوقف اللبنانيون عن التناحر والتقاتل وقد سبق وقلت ان داود باشا وهو الذي دشَّن عهد المتصرفية قد فكر جديًا بإنشاء مرفأ على مصب نهر الدامور ليجعل للبنان المستقل مرفأ مستقلاً نافذًا إلى قلب الشوف.

– أي إلى قلب لبنان؟

– نعم، أي إلى قلب لبنان.

– ولكنك لم تقل لنا الشيء الأهمّ؟

– وما هو الشيء الأهمّ؟

– التعويض على المنكوبين. ألم يعوِّضوا عليهم؟

٥٨) تركيا، انكلترا، فرنسا، روسيا، النمسا، بروسيا.

– لقد أقرَّت الدول بالإجماع مبدأ التعويض على المتضررين كما أقرّوا مسؤولية كل فريق عن التخريب والتقتيل وسائر الجرائم التي اقترفها بحق الفريق الآخر وهذا من بديهيات العدالة.

– يظهر أن ميزان العدالة قد تغيَّر في أيامنا. فالدولة تصرِّح اليوم أنها عاجزة عن التعويض نظرًا لفداحة الخسائر وجلّ ما تستطيع هو تسليف المنكوبين مبلغًا محدودًا لمساعدتهم على النهوض.

– منطقيًا هذا القول مردود لأن العجز غير وارد عندما تكون المسؤولية واضحة. فأساس الأخلاقيات قد لخصه الفيلسوف الألماني الكبير بكلمة: Tu peux car tu dois «أنت قادر على الشيء طالما هذا الشيء واجب عليك»(٥٩) فحيث لا يجوز أن يعجز الفرد، كيف يجوز أن تعجز الدولة؟

– ولكن على من تقع المسؤولية؟ ربما تكون الضحايا هي أيضًا مسؤولة...

– هذا هو السؤال الذي ترزح تحت عبئه الدول الصغيرة. الضمير الدولي قد شاخ يا بني ولم يعد يهتم كثيرًا بإنصاف المظلومين. لكن الأفضل أن نترك هذا البحث لأرباب السياسة. فإني أخشى إذا طال الحديث، أن ينتهي الموسم قبل أن نبدأ الجولة.

– الموسم؟ أي موسم؟

– نحن الآن نتجوّل بين أشجار التوت في سهل الدامور على عهد رستم باشا متصرف جبل لبنان. نسير بأمان، نسير الهوينا والربيع معنا: ربيع الساحل الداموري الناعم، ربيع مخملي أخضر لا يزال قلبي الهرم يحنّ إلى نضارته. عجيبة هذه البيوت المنتشرة في كل فسحة ما بين التوت. إنها بيوت من قصب مرتفعة على ركائز خشبية يسمونها «خِصاص». كلها على نمط واحد: طول البيت يتراوح بين سبعة وعشرة أمتار وعرضه ثلاثة ونصف. تعالوا ندخل إلى «الخُص» سنكتشف في داخله سرًّا مذهلاً من أسرار الطبيعة.

– مرحبا، بو مارون.

– مرحبا. أهلاً وسهلاً. شو جايين تاكلوا كبوش.

٥٩) Kant الفيلسوف كنت.

– لا، جئنا لنتفرّج. أتسمح لنا بالدخول إلى خصّك؟

– بكل طيبة خاطر. أهلاً وسهلاً بالضيوف، حلت البركة. انشاالله، على وجهكم، يمضي عيد العنصرة بسلامة.

عيد العنصرة يقترب والمزارعون يخشونه. إنهم يخافون من حلول الروح القدس لأنه لا يهبط في لبنان إلا مع هبوب العاصفة. «العنصرة يا حريق، يا غريق». يقول المثل الدارج. دخلنا الخُص: أمامنا ممشى ضيق وعلى جانبيه تمتد موائد الطعام، موزّعة على عدة طوابق. الموائد مغطاة بورق التوت كي يسرح عليها دود الحرير ويأكل ما طاب له. ولكن لماذا؟ لماذا هذه الحشرات البيضاء الجميلة كلها دون استثناء قد انقطعت عن الأكل وعن الحركة؟

– ربما لأن الأكل لا يعجبها فأضربت عن الطعام، يا جدي. فسَّر المحامي الصغير، سارق البيض.

– لا، يا جدي. الأكل شهي والموائد نظيفة. ورق التوت نضر ودود الحرير يحبه كثيرًا. إنما هذه الدودة الذكية تصوم. تصوم أربع مرات. تنقطع عن الأكل وعن الحركة من تلقاء نفسها. ترفع رأسها نحو العلاء وتتواجد كأنها في حال من الأحوال الصوفية، كأنها تستلهم، كأنها تطرح على العلي سؤالاً يحزّ في صميمها: «لماذا أوجدتني؟ ألأملأ جوفي فقط؟ ألاملأ جوفي وأموت؟» في الصوم الأول لا ينزل عليها الإلهام، فتعود وتصوم مرة ثانية ثم ثالثة، وفي الرابعة، قرب حلول العنصرة، يتحرك في أمعائها خيط الحرير ويشرق في ظلمة الجوف الفارغ فجر الرسالة: رسالة الإبداع. يقول لها الصوت الداخلي: «لا، لن تموتي إذا صدقت مع ذاتك وبذلت حياتك. ستحيين. فنّك يخلّدك!» الصوت الداخلي قدّهداها إلى رسالتها. حينئذ تعود إلى المائدة وتلتهم بشهية متزايدة هذا الورق المبارك الذي تعرف الآن أنّ فيه سرّ خلودها وأن عليها العمل لتحويله إلى أجمل نسيج في العالم. بعد الفطرة الرابعة، تبتعد نهائيًا عن مائدة الطعام وتبدأ بتنفيذ مهمتها: من فمها الصغير ينطلق خيط حريري تحوكه بدقة ومهارة حول جسمها لتتكفن به وهكذا تنهي دورة حياتها كدودة. تتوارى عن الوجود. تنسى التوت وطعم الورق النضر، تنسى كل شيء. بما في ذلك كيانها الأول وتدفن نفسها في الشرنقة التي هندستها وأبدعت حياكتها... وبعد حين، إذا لم يخنقها صاحب معمل الحرير في خلقينه، تنبعث من جديد: تنقر الشرنقة كما يفعل الصوص بالبيضة وتنطلق من رمسها، لا دودة زاحفة

بل فراشة ناصعة البياض ترفرف وتطير وتمارس الحب وتنعم بحرية المجنحين في الهواء الطلق.

عندما يدنو موسم القطاف، يتوافد العمال من القرى المجاورة لمساعدة الداموريين على قطف الشرانق: دروز، سنيُّون، نصارى، لا فرق. منهم من أتى من بعاصير أو من برجا ومنهم من أتى من عانوت أو من الزعرورية أو من بعورته أو من دقون وغيرها. لا فرق. لا أحد في الدامور يسأل العامل عن هويته. هويَّة العامل أن يعمل، أن يعمل في حقل الإنتاج بصدق ونشاط. المهمّ أن ينجح الموسم. فالمصلحة مشتركة. القزّاز يتقاضى ربع الغلّة وقاطفو الشرانق لهم إكراميات إذا أنتجت علبة البزر فوق الأربعين أقة. وإذا تجاوزت الثلاث وأربعين، يرفعون الرايات البيضاء فوق ظهور الجمال وهي تنقل الشرانق إلى المصنع ويهللون ويرقصون الدبكة، اليد باليد، مسلمون ومسيحيون، لا فرق: الفرحة واحدة والمصلحة مشتركة.

*

الدامور أصبحت تحتلّ المرتبة الأولى بين القرى المنتجة. فلندَع الأرقام تتكلم: علبة البزر التي تزن ٢٥ غرامًا كانت تعطي في سائر مناطق الجبل ما بين ٢٠ و٢٥ اقة شرانق. أما في سهل الدامور فالمعدل الوسط يتراوح بين ٣٥ و٤٠ أقة. في إيطاليا وفرنسا حيث الدولة تشجع مربي دود القز بشتى الوسائل، لا يتوصل المربّون إلى مثل هذه النتائج. محصول سهل الدامور السنوي من الشرانق يبلغ نحو مئة وعشرين ألف أقة. فلنقارن بين هذا المحصول وبين ما كانت تعطيه سائر القرى اللبنانية: دير القمر: ٣٠ ألف أقة. الشويفات: ٣٠ ألف. الشياح: ٣٠ ألف. برج البراجنة: ٢٠ ألف. بعبدا: ٢٠ ألف. غزير: ٢٥ ألف. البترون: ١٦ ألف. جبيل: ٩ آلاف. جونيه: ٣ آلاف... الخ[٦٠]. مجمل موسم الشرانق السنوي في جبل لبنان يقدّر بثلاثة ملايين أقة، أي ان الدامور وحدها تعطي ٤ بالمئة من مجمل الحاصلات. في الوقت ذاته أخذت صناعة حلّ الشرانق بالازدهار وأصبحت مصانع الحرير تؤمن ٦٠ بالمئة من الدخل القومي في البلاد، فسارع الميسورون من أهالي الدامور إلى إنشاء المعامل لحلّ الحرير. لم يكنزوا الأموال لصرفها

٦٠) أخذنا هذه الأرقام عن دليل لبنان لصاحب جريدة لبنان ابراهيم الأسود (الطبعة الثالثة، بعبدا سنة ١٩٠٦).

على متعهم بل وظفوها في أكبر صناعة وطنية وكثيرًا ما كانوا يستدينون فوق مداخيلهم لتوسيع مشاريعهم فأصبحت الدامور وسهلها أكبر دعامة لاقتصاد جبل لبنان.

في سنة ١٩٠٥ كان في الدامور أربعة معامل حلّ: الأول خاصة شاكر هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ١٦٠، والثاني يخص وقف دير مار جريس الناعمه وعدد دواليبه ٨٠، والثالث خاصة نعيم عون وشركاه وعدد دواليبه ٦٠، والرابع خاصة بطرس هيكل الغريِّب وعدد دواليبه ٥٠[٦١]. ثم أنشئ فيما بعد معمل خامس لصاحبه نعيم نستير عون. فأخذ العمال يتوافدون إلى الدامور ليسترزقوا من مصانعها: مسلمون ومسيحيون، لا فرق. لم يكن في الدامور أدنى أثر للتعصب الطائفي. وكان تجار الحرير الأوروبيون يقولون ان أجود الحرير وأشده نظافة ولمعانًا هو حرير لبنان وهو يفوق حرير الهند وبلاد فارس قيمة بمعدل ٣ لواحد. وحرير الدامور والشويفات كان يُغسَل فيبيَضّ ويستعملونه لنسج المخمل والأطلس وكان التسويق يجري غالبًا في صيدا أمام خان الفرنج قرب الشاطئ. وهكذا نمت الدامور فبلغ عدد سكانها سنة ١٩٠٠ نحو ٥ آلاف نسمة في حين كان مجمل عدد الموارنة في الشوف يبلغ نحو ٣٢ ألفًا[٦٢].

*

– أتعلم من هو الرجل الذي تبرّع بأكبر مبلغ من أجل تعبيد طريق الحجاز؟

– لا أعلم. إنما لا بدَّ أن يكون أحد الأمراء أو الملوك العرب.

– أتصدّق إذا قلت لك انه ماروني من الدامور. كانت طريق الحج مهملة في تلك الأيام وكان الحجّاج القاصدون بيت اللّه الحرام يعانون الأهوال وهم في طريقهم إلى مهد الإسلام في مكّة المكرمة. فقرر السلطان العثماني أن يعبّد الطريق وفتح باب التبرعات وكان صاحب أكبر معمل حرير في الدامور المدعو شاكر هيكل الغريِّب رجلاً كريمًا يحب الجاه ويعطي بسخاء، «فتبرّع من ماله الخاص بمبلغ مئة ألف ليرة ذهب»[٦٣] وصار أكبر مساهم في أعزّ مشروع على قلوب المسلمين. فأرسل السلطان نوبته السلطانية لتدقّ في داره وأنعم عليه بلقب «بيك». تزوج شاكر بيك من ابنه قنصل فرنسا في صيدا السيد

٦١) وقد زاد المرحوم بطرس هيكل عدد الدواليب حتى أصبح ١٠٠.
٦٢) عن دليل لبنان، لابراهيم الأسود.
٦٣) عن موسوعة «إعرف لبنان» لصاحبها عفيف مرهج.

«درغلو» وكان يهوى الترف والتُحَف الجميلة، فشرع ببناء قصر له في وسط الدامور أراده أن يكون أجمل قصر في المنطقة وعهد ببنائه إلى معلم ماهر من عائلة الخرياطي من جون[٦٤]. يا لسخرية القدر! ان هذا القصر الذي يجب أن يبقى تحفة أثرية ترعاه الدولة ويرعاه العرب والإسلام إقرارًا بجميل صاحبه، قد انصبّ عليه غضب الغزاة أثناء اقتحام الدامور فأقدموا بحماس على هدمه وتشويهه. هكذا يردون التحية بأحسن منها.

– ولكن، يا شيخي، أنت تعرف: في الحروب الأهلية، كثيرًا ما يسيطر الهوس والغباوة...

– الغباوة... الغباوة... ربما عذرنا عليها الرعاع... لكن القيادات، فما هو عذرها؟

*

اهتمّ المتصرفون بالمشاريع العمرانية فشقوا الطرق وعبّدوها وشيّدوا السرايات والمستشفيات ودُور القضاء وأسسوا المطابع والجرائد وأنشأوا مدارس حكومية في أمهات القرى (منها ٧٢ مدرسة على عهد رستم باشا) وأُنعِمَ على بيروت بالترامواي وبمدّ سكة الحديد بين بيروت والشام سنة ١٨٩٢.

– وما كان نصيب الدامور من هذه المشاريع؟

– نصيب الدامور كان ضئيلاً وقد اقتصر على إعادة بناء الجسر فوق نهر الدامور وتوطيد أركانه بالحديد والغاية من هذا المشروع منفعة المارة لا منفعة الدامور، وفي سنة ١٩٠٨ اتصلت طريق الدامور بدير القمر عبر الزيره[٦٥]. لكن الداموريين تعوّدوا أن لا يتكلوا إلا على أنفسهم فقام الخوري بولس الغريِّب بمشروع جرّ مياه الشفة إلى بلدته.

قبل سنة ١٨٩٠ كان جبل لبنان كله يستقي من الآبار او الينابيع المكشوفة. وحدهم أهالي بيروت كانوا يتمتعون بمياه تجري إلى عقر دورهم بفضل أنابيب مدتها شركة إنكليزية من نهر الكلب إلى المدينة. أما أهالي الدامور فكانوا ينقلون المياه إلى بيوتهم من بئر العين المحفورة في منتصف سهل الدامور على ضفة نهر أبي دمعة وكانوا يعانون مشقة

٦٤) وهو الذي شيد قصور بني جنبلاط في البرامية.
٦٥) عن كتاب «دير القمر» لشكري البستاني.

في تعبئة الجرار من البئر العميقة وحملها مسافة بعيدة على ظهور الدواب أو على رؤوس النساء. وكان الخوري بولس الغريِّب يملك قطعة أرض في خراج دقّون تجري بالقرب منها مياه نبع صافٍ يسمونه «نبع الحلال». «نبع الحلال» ما أجمل هذا الاسم! أعجب الخوري به فعزم أن يسقي بلدته من هذا النبع الذي يحمل في اسمه معنى يعكس عذوبة مائه فرهن أملاكه على ستة آلاف ليرة ذهبًا وباشر بتحقيق مشروعه وفي ربيع سنة ١٨٩٠، بعد اشغال حفر عبر الجبال الصخرية دامت أكثر من ٣ سنوات، تدفقت مياه نبع الحلال في منازل البلدة وكان ذلك على عهد المتصرف واصا باشا (١٨٨٣–١٨٩٢). والدامور أول بلدة في جبل لبنان أنجز فيها مثل هذا المشروع وقد أنجز على يد أحد أبنائها، دون أدنى مساعدة لا من دولة ولا من مؤسسة... وعلى عهد المطران يوسف الدبس، شيَّد نعمان هيكل الغريِّب كنيسة على اسم العذراء من ماله الخاص فصار الحيّ الأعلى من معلقة الدامور يدعى حيّ السيدة[٦٦]. في تلك الكنيسة جمعوا الداموريين الذين لم يغادروا البلدة عند اقتحامها ومنها نقلوهم إلى شارع صبرا.

– وكنت في عددهم، يا شيخي.

– نعم، كنت في عددهم.

– أتسمح بأن تقول لنا شيئًا عن انطباعاتك؟

– لا تفتح هذا الباب الآن. إذا مدَّ اللّه بعمري، ورجعنا إلى الدامور، سأكتب مذكراتي.

*

– والمدارس التي أنشأتها الدولة على عهد المتصرفين، ألم يكن للدامور نصيب منها؟

– في أول عهدها بدأت الدامور كسائر قرى الجبل تعلّم أولادها تحت السنديانة القائمة أمام دار البلدية وأنا أنتظر بفروغ صبر خبرًا عنها. ثم تقدم التعليم وانتقل التلامذة من تحت السنديانة إلى غرفة تخص وقف مار الياس ثم أخذ الآباء اليسوعيون يشرفون

٦٦) يوسف الدبس: تاريخ الموارنة.

على المدارس وانشأوا مدرسة للبنات بإدارة المريميات. بعض الوجهاء من المؤمنين بالعلم كانوا يرسلون أولادهم إلى المعاهد المشهورة مثل عينطورا والحكمة واليسوعية. لكن العقلية السائدة عند العامة كانت أن العلم في المدارس لا يُرجى منه كبير فائدة فابن المكاري يصير مكاريًا وابن الفلاح فلاحًا وابن النجار نجارًا... فعلى الوالد أن يعلِّم أولاده صنعته كي يعيشوا سعداء.

– يعني انهم كانوا يحبون صنعتهم.

– نعم، وكان بعضهم يتحاشى إزعاج أولاده بكثرة الدرس خوفًا على صحتهم وتوازنهم العقلي معتقدين أن الإفراط في الدرس والتحصيل كثيرًا ما يسبب العَتَه. وعلى سبيل التفكهة سأقص عليك قصة رواها لي جدي. كان جدي وحيدًا لوالديه فكانت أمه تحيطه بعناية فائقة وتخاف كثيرًا على صحته، ركوب الخيل والتنزه في سهل الدامور أحب شيء إلى قلبه، وأكره شيء الانحباس في المدرسة وتصريف الأفعال باللغة الفرنسية. فرائصه ترتعد كلما طلب منه المعلم أن يصرِّف فعل Avoir ولاسيما الماضي الأسبق Passé antérieur لكثرة ما فيه من حروف الـ u التي يستصعب لفظها. ذات يوم عند إطلالة الربيع حدثته نفسه أن يحتال على والديه وأن يقوم أمامهما بتمثيلية صغيرة تخلصه من الحبس وتتيح له فرصة التمتع ببهجة الربيع في بساتين الدامور، فهرب من المدرسة وعاد إلى البيت باكيًا وأخذ يلطم رأسه بعنف أمام والديه وهو يرثي حاله ويعدد: «يا دلَّك، يا راسي، شو بدَّك تساع! خط وقواعد وتعليم مسيحي وجمع وطرح وشبكة ضرب وجغرافيا وتاريخ وتصريف أفعال...» ثم صرم شفتيه ليرسم حرف الـ u اللعين وأخذ يتمتم: «جيزي، تيزي، الزي، نيزيمزي، فيزتيزي... نزيمزي... ايزيرتي!»[٦٧]

ظنت أمه أن ابنها الوحيد قد أصيب بعارض هذيان فوثبت وضمته إلى صدرها وهي تصيح بزوجها: «يا بو يوسف، هالصبي ما لنا غيره. انخلّي رأسه ينفجر من كثرة العلم! الحمد لله عندنا شيء يكفينا ويكفيه، من اليوم وطالع ما بقى يروح عالمدرسة!» وهكذا انطلت الحيلة على الوالدين وتخلص جدي من تصريف الأفعال بالفرنسية.

– وكيف كان وضع البلدة الإداري في تلك الحقبة؟

– كانت الدامور ملحقة بناحية الشحّار التابعة لقضاء الشوف مركز مديريتها

٦٧) J'eus eu, tu eus eu, etc...

بعقلين في الصيف وعين عنوب في الشتاء. وكان قائمقام الشوف سنة ١٩٠٠ الأمير مصطفى ارسلان ثم خلفه الأمير توفيق ومدير المال الشيخ خطار تلحوق ثم خلفه محمود بك تقي الدين وكان مدير ناحية الشحار الأمير سعيد قعدان.

– إذن كانت للدامور علاقة وثيقة مع زعماء بني معروف.

– وثيقة وودّية ليس فقط مع الزعماء بل مع جميع أبناء الطائفة الدرزية.

– وشؤون البلدة الداخلية من كان يديرها؟

– شؤون البلدة الداخلية كانت منوطة بمجلس بلدي مؤلف من اثني عشر عضوًا وبشيخ صلح يعاونه ثلاثة مخاتير[٦٨] فشرع الداموريون يسهرون بأنفسهم على نظافة بلدتهم وتحسين حالة الطرق الداخلية ولما أقبلت سنة ١٩٠٠ كان في الدامور ٨ عربات للنقل.

– يعني ٨ «تكسيات» على الخيل، يا جدي؟ سأل المحامي الصغير.

– نعم، ٨ تكسيات على الخيل...

قبل أن نطوي صفحة المتصرفية، لا بدّ من الإشارة إلى أنه في سنة ١٩١١ تأسست في باريس جمعية سورية لبنانية غايتها المطالبة باستقلال البلاد وكان شعارها: «سوريا للسوريين». ومن أعضائها البارزين والمناضلين أحد أبناء الدامور المرحوم هيكل هيكل نجل شاكر بك هيكل صاحب القصر الذي سبق الكلام عليه. نشأت تلك الحركة الاستقلالية ردًا على سياسة تركيا الفتاة الهادفة إلى دمج جميع رعايا السلطنة بالكيان العثماني وتلقينهم اللغة التركية فتألفت الجمعيات الوطنية لمكافحة هذا التيار وإنقاذ الكيان اللبناني–السوري من الضياع. وهكذا ترى ان الدامور كانت دائمًا السبّاقة: الأولى في حقل الإنتاج وصناعة الحرير، الأولى في جر مياه الشفة لأبنائها، والأولى في النزوع إلى التحرر مع الحفاظ على هويتها. رمزها دودة الحرير: فهي تارة تصوم وتارة

٦٨) مدة المجلس البلدي كانت سنتين وإليك أسماء أعضائه كما وردت في دليل لبنان سنة ١٩٠٦: جريس مخايل الغريب، اسكندر شيبان الغريب، طوبيا هيكل الغريب، أمين مبارك عون، رشيد شاهين عون، خليل الياس الغريب، جبرايل بطرس عون، بطرس طنوس عون، أيوب الخوري مارون، داود أبو عقل، حنا المتني، رشيد لبّس، وكان شيخ الصلح يوسف فرحات الغريب، والمختارون: الياس أسعد عون وشاكر عبود عقل وطنوس منصف المتني.

تفطر وهمها الوحيد أن تتقن حياكة شرنقتها لتنطلق منها فراشة ناصعة ترفرف حيثما شاءت في سماء الحب والحرية.

من حرب عالمية إلى حرب عالمية
(١٩١٤-١٩٣٩)

– اجتازت الدامور حربين عالميتين وأصابها القسط الأوفر من الضربات التي حلّت بلبنان من جراء الحربين لكنها لم تتعرض إلى ما تعرضت إليه أثناء هذه الحرب المسمّاة أهلية، من إذلال وتشريد وخراب. كانت تصمد في وجه الأعاصير وتعود بسرعة لتلملم طاقاتها المبعثرة وتجدد شبابها كأنها تستمد من نوائب الدهر مزيدًا من المناعة والحيوية.

– «إلى هيكلك المعطّر يأتي فينيق ودامور»... أتذكر يا شيخي صلاة الكاهن الصيدوني؟

– أجل، أذكر: «فينيق المجنّح الذي يأتي منعتقًا من شيخوخته فيجدد شبابه ويولّد نفسه بنفسه، ودامور، ابن اوران، الذي يحيي ويميت، يعمر ويدمر ويتخذ من اللهيب حياة ثانية...»

– إذن كانت الدامور على مثال الإله الصيدوني الذي أعطاها اسمه. لكنك حتى الآن لم تفكّ لنا اللغز، انترك السؤال معلّقًا حتى النهاية؟

– لِمَ لا؟ أليس هذا أسلوب التشويق في الروايات البوليسية؟

– أنحن الآن بصدد رواية بوليسية أم بصدد مأساة واقعية.

– إنها مأساة مغلّفة برواية بوليسية. الغموض يكتنف الجريمة من كل ناحية. من تآمر على الدامور؟ ولماذا اختاروها لتكون كبش الفداء. من اغتال الدامور؟ ربما هو ذاته الذي اغتال معروف سعد وكمال جنبلاط... من يعلم؟ المأساة على الأرض أشدّ إثارة منها على المسرح أو على الشاشة والروايات التي نرتكب نحن جرائمها ونحبُك عقدها تثير فضولنا وإعجابنا أكثر من تلك التي نشاهدها في أفلام الرعب. عفوًا: أسئلتك أخرجتني عن الموضوع. ألا تريد أن نعود إلى قصتنا؟ لقد سبق وقلت لك ان هذه الرواية ليس فيها من بوليس يتحرّى الأمور سوى أنا وأنت. وأنا وأنت في فمنا ماء.

بدأت الحرب العالمية الأولى في صيف سنة ١٩١٤ فعزل الباب العالي متصرف الجبل المسيحي وأعلنت الأحكام العرفية فأصبح الحاكم العسكري جمال باشا مطلق

الصلاحية، يتصرف على هواه في سوريا ولبنان. حركة التجارة والصناعة شُلّت وصدر أمر سلطاني بتأجيل وفاء الديون وكانت زراعة التوت قد استأثرت بكل اهتمام الداموريين فإذا حصل الداموري على مقدار اصبعين من الأرض زرع فيهما توتة..(٦٩).
فوجئت الدامور بانقطاع الأغذية وارتفعت أسعار البقول والخضار والحبوب وسائر الحاجيات ارتفاعًا هائلاً فعمَّ الضيق وما أطلت سنة ١٩١٦ حتى بدأ الجوع ينهش عددًا من السكان ويحملهم على بيع ممتلكاتهم بأبخس الأثمان لنيل ما يسدّ الرمق. فنحلت الأجسام وشحبت الألوان وتسلطت الأوبئة وتمركز فَريق عسكر تركي في البلدة واحتل قصر شاكر بك هيكل في وسط البيوت الآهلة وكان حيثما حل العسكر يجرّ وراءه القمل وحمّى التيفوس فتكاثرت الوفيات بحيث كان لا يمضي يوم واحد بدون ثلاث أو أربع جنازات.

حكى لي أحد الذين عانوا من ويلات تلك الحرب أنه كان على قاب قوسين من الموت جوعًا لكنه شاهد ذات يوم ميتًا ينقله الأتراك إلى «جل العلامة»(٧٠). ينقلونه على سلَّم لفقدان التوابيت وهم ينشدون أغنية تركية على نغم راقص كأنهم يسخرون من الموت. فاستولى عليه الاشمئزاز وقرر في صميمه أن يصارع الجوع مهما كلفه الأمر كي لا تكون جنازته مثل جنازة هذا المسكين. أخذ يتحرّى النمل ويسطو على أوكارها فيختلس ما فيها من حبوب ثم يبدرها بين التوت فأعطت نتائج لا بأس بها وأبعدت عنه شبح الجوع.

لكن شبحًا آخر كان يقضّ مضاجع الكثيرين: شبح مشنقة جمال باشا، شبح الشنق على الظن. جمال باشا كان طاغية جائرًا بأحكامه يعاقب بالشنق كل من أظهر أقل مناهضة للاستبداد العثماني وفي ٦ أيار سنة ١٩١٦ شنق في دمشق وبيروت أربعين وطنيًا ومن بينهم ابن الدامور البار الشهيد سعيد فاضل عقل (١٨٨٨–١٩١٦) الصحافي اللامع ومؤسس جريدة البيرق.

وفي إحدى الليالي شاع خبر مفاده أن الدارعة الفرنسية «جان دارك» ستزور شاطئ البلدة وكانت الجان دارك تجوب المياه الإقليمية اللبنانية وتقترب ليلاً من السواحل فينزل فريق من بحّارتها إلى الأرض ويهبط لملاقاتهم بعض الأهالي فيمدهم البحارة بالأغذية

٦٩) هذا ما قاله أحد الرحالة Thevenot عن المزارع اللبناني.
٧٠) مدفن كانوا يرمون فيه الجثث أثناء الحرب.

والأدوية، ذاع الخبر فهرع بعض الداموريين إلى الشاطئ لملاقاة بحّارة الدارعة الفرنسية. وما ان وصل التقرير إلى الحاكم العثماني حتى أصدر أمرًا بجلب شيخ الدامور ووجهائها إلى عاليه بتهمة الخيانة. فدبّ الرعب في قلوب عيالهم وظنوا أنهم سيرسلون توًا إلى الشنق. لكن المحقق برّأ ساحتهم فسلموا من الإعدام. والجدير بالذكر أن تخليص أعيان الدامور من مشنقة جمال باشا يعود به الفضل إلى درزيين وسنّي: الدرزيان هما الأمير عادل ارسلان قائمقام المنطقة والأمير شكيب وقد توسطا لدى السلطة العثمانية من أجل إخلاء سبيل الداموريين والسني هو المدعو أحمد نجم من بعاصير الذي أقسم اليمين بأنهم لم يتصلوا ببحارة الدارعة الفرنسية: وهذه أيضًا مأثرة تضاف إلى سجل مآثر الطائفية في الشوف. وهكذا عاش الداموريون واللبنانيون عامة طيلة مدة الحرب وهم يقاسون الجوع والخوف والاستبداد. كان قنصل فرنسا يوم وقوع الحرب قد صرّح قبل مغادرته بيروت أنه لن يمضي خمسة عشر يومًا إلا وتخفق رايات الحلفاء على هذه البلاد. فشاع الخبر وبقي الناس ينتظرون طيلة أربع سنوات نهاية الخمسة عشر يومًا.

عندما أشرفت سنة ١٩١٧ على النهاية، اخترق الحلفاء بقيادة الجنرال اللنبي خط الدفاع التركي قرب غزّة وزحفوا إلى فلسطين فاحتلوها وفي سنة ١٩١٨ قضوا نهائيًا على مقاومة أعدائهم، فما أقبل شهر تشرين الأول حتى دخل جيش الحلفاء صيدا ومنها توجَّه إلى الدامور فهرع الناس لملاقاته بالأهازيج والأناشيد وقد لاحظ قائد الحملة الإنكليزي بشيء من الامتعاض أن أولاد الدامور يستقبلون جيشه بالأناشيد الفرنسية. ما العمل مع هؤلاء الموارنة يصرخون في وجه الإنكليز: Vive la France! لماذا لا يعيِّشون الحلفاء؟ ما العمل مع هؤلاء الموارنة هل من دواء يشفيهم من عشقهم العذري لفرنسا؟ ربما بجعلهم تحت الانتداب الفرنسي... وهذا ما حصل.

خرجت الدامور من محنة الحرب العالمية الأولى منهوكة، مثخنة بالجراح وقد فقدت أكثر من نصف سكانها. قبل نشوب الحرب كان عدد الداموريين يفوق الخمسة آلاف، أما عند نهايتها فهبط إلى دون الألفين. لكن حيوية البلدة لم تنضب وسرعان ما قامت تنفض عنها غبار النكبة وتعمل على استعادة نشاطها وازدهارها وإليك هذا الوصف الموجز لحالة الدامور في سنة ١٩٢٧ كما ورد في كتاب «قاموس لبنان»(٧١):

«الدامور تابعة مديرية الشويفات من محافظة الشوف سكانها ٢١٦١ منهم

٧١) قاموس لبنان، تأليف وديع نقولا حنا، صدر سنة ١٩٢٧.

٢٠٦٠ ماروني وهي تبعد عن بيروت ٣٦ كيلومترًا وقد اشتهرت بالتوت واصطناع الحرير، فيها الساحل الوسيع المعروف بسهل الدامور وكله مغروس بشجر التوت، فيها خمسة معامل حرير وأربع كنائس... والدامور اليوم هي الثانية بعدد سكانها بين قرى الشوف واشتهر منها في الصحافة أمين الغريب صاحب مجلة الحارس[٧٢] وأسبر الغريب صاحب مجلة الشمس ويوسف الحتي صاحب جريدة أرزة لبنان ومنها النائب السابق وديع عقل صاحب جريدة الوطن (ثم جريدة الراصد وقد ترأس المجمع العلمي اللبناني وكان أول نقيب للصحافة في لبنان) وأسعد عقل الكاتب المفكر رئيس تحرير جريدة الجوائب والمرحوم سعيد عقل مؤسس جريدة البيرق..[٧٣].»

ألا تأخذك الدهشة حيال هذا الحشد الداموري الكثيف في ميدان الصحافة؟ قرية، عدد سكانها، ألفان، تنجب في فترة وجيزة ستة مؤسسي صحف ومجلات مع العلم أن عدد الجرائد الصادرة في بيروت وجبل لبنان في تلك الحقبة لم يكن يتجاوز الاثني عشر. وإذا أضفنا إلى هذه اللائحة أسماء صحافيين مشهورين لمعوا بعد سنة ١٩٢٧ مثل عارف الغريِّب صاحب جريدة بيروت المساء والشهيد نسيب المتني صاحب جريدة التلغراف الذي اغتيل في حوادث سنة ١٩٥٨ بسبب جرأته التقدمية وشقيقه توفيق المتني نقيب الصحافيين سابقًا وغيرهم وغيرهم، أصبح بإمكاننا الاستنتاج من دون كبير مجازفة ان ثلاثة أخماس ما نشر في حقل الإعلام اللبناني ما بين الحربين العالميتين قد تولت تحريره أقلام دامورية... ويتابع صاحب «قاموس لبنان» وصفه قائلاً:

«... وقد اشتهرت الدامور بكونها بلدة النبوغ بالشعر العامي فاسم المرحوم منصور شاهين الغريب والمرحوم مرشد فارس الأسمر وسليمان شيبان عون والياس داود مخير الغريب وخليل أيوب الحتي وغيرهم كثيرون[٧٤] من الذين برزوا في هذا الفن... ومن أعيانها أيضًا المرحومون سمعان عون الذي تولى القضاء في الشويفات والياس لحود عون شيخ البلدة سابقًا والياس هيكل الغريب وشقيقه نعمان الخ... والمحامي الياس رزق الله والشاعر راجي عون والشاعر الخطيب فريد الغريب... ومن أطبائها الدكاترة عزيز عون وخليل مجيد الخوري واسكندر عون وفريد الغريّب... وفيها من الجمعيات الخيرية عدد وافر»...

٧٢) أمين منصور الغريب أول من نشر باكورة أدب جبران وثبّت عيد الأم في لبنان. وكان يحرر الزاوية التاريخية في الأهرام. (موسوعة أعرف لبنان.)

٧٣) أسس المرحوم سعيد فاضل عقل جريدة البيرق سنة ١٩١١، وأعاد نشرها شقيقاه يوسف وأسعد عقل عام ١٩٢٨.

٧٤) وقد اشتهر في أيامنا هذه اسم زغلول الدامور في الشعر العامي. أما المرحوم خليل أيوب الحتي فهو الذي أصدر أول مجلة زجَلية في لبنان سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «المنخل» وبعد سنة حصل على امتياز مجلة «الشعر القومي».

ولا بدّ أن نذكر هنا شخصية لمعت في عالم السياسة، أعني النائب ووزير التربية سابقًا المرحوم جورج عقل.

هذه الشهادة المعطاة من شخص غريب عن البلدة تثبت أن بلدة الحرير كانت في طليعة النهضة الفكرية والاعلامية في تلك الحقبة وأن أبناءها أتقنوا صناعة القلم والكلمة كما أتقنوا صناعة الحرير، والحق يقال أنّك قلّما تجد ليس فقط في لبنان بل في العالم كله بلدة بهذا الحجم المتواضع تقدم للوطن إنتاجًا من هذا العيار في حقول الزراعة والصناعة والصحافة والتربية.

إني لا أحب الإطناب، إنّما هذه كلمة حق يجب أن تقال على ضريح الدامور بعد أن شوّهوا وجهها ولوّثوا سمعتها وداسوا جثث أبنائها بالنّعال.

ماذا جنت الدامور من ثمار الانتداب الفرنسي؟ لم تجنِ ثمرة تهليلها وعشقها المفرط إلا مرارة وخيبة: كساد موسم الحرير، زيادة الضرائب وبالنهاية تحويل الدامور إلى ترسانة وجعلها كبش الفداء عن العاصمة بيروت في سنة ١٩٤١. مشروع عمراني واحد[٧٥] تحقق في تلك الحقبة لكنه تحقق بهمة أحد أبناء البلدة دون مؤازرة الدولة ألا وهو إنارة الدامور بالكهرباء وقد قام بتمويل المشروع المرحوم الشيخ يوسف فرحات الغريِّب بعد أن رهن قسمًا من أملاكه ليستلف المال اللازم.

المورد الرئيسي في حياة الدامور الاقتصادية أخذ يشحّ وما إن أقبلت سنة ١٩٢٩ حتى استفحلت الأزمة. موجة من الكساد اجتاحت الأسواق في أوروبا وفي أميركا بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٣[٧٦] ولم تكن المؤسسات الدولية قد احتاطت للأمر فسادت البلبلة وأعلنت آلاف المتاجر إفلاسها حتى أن بعض الاقتصاديين وجدوا في ذلك تحقيقًا لنبوءة كارل ماركس الشهيرة القائلة: «إن أزمة عاتية سوف تكتسح النظام الرأسمالي وتزيله من الوجود». أما لبنان فكان، كما أشرنا سابقًا، يعتمد على صناعة الحرير بنسبة تعادل ٦٠ بالماية من دخله القومي. كان في الجبل على أيام ازدهار الحرير تسعة آلاف خلقين تحلّ نحو ٥ ملايين كيلو شرانق ويشتغل عليها نحو ١٢ ألف عامل. قبل نشوب

٧٥) يضاف إلى هذا المشروع مد الباطون في أقنية الري بفضل قرض مالي استحصلت عليه بلدية الدامور برئاسة السيد جوزيف هيكل الغريب من حكومة الرئيس شارل دباس.

٧٦) سنة ١٩٣٠ سمّوها في أميركا سنة الكساد الأعظم إذ تدهورت الأسعار خصوصًا سعر الحليب إلى حدّ أنّه لم يعد يكفي المزارع لحلب بقراته.

الأزمة العالمية بدأت أسعار الشرانق بالهبوط لأسباب محلية أهمّها نشاط السماسرة. ظهر السماسرة في الساحة وأخذوا يمارسون الفن الذي يتقنونه أي «اللعب على الحبلين» فأصبح شراء الشرانق منوطًا بهم بدلاً من أصحاب المعامل فتضرّر البائع كما تضرّر المشتري وحدث أول هبوط في الأسعار فتدنّى معه مقدار إنتاج الشرانق من ٥ ملايين كيلو إلى ٣ ملايين و لم يبق سوى ٥ آلاف خلقين يشتغل عليها ٦ آلاف عامل. حاولت الدامور أن تعاند التيار الجارف وأن تثابر على مقدار إنتاجها كي لا تعرّض عمّالها للبطالة. لكن حلول الأزمة العالمية ومضاربة البضائع اليابانية ومزاحمة الحرير الاصطناعي كل هذه العوامل تضافرت لسحق مقاومة المثابرين. حينئذٍ وقعت الكارثة: خيط الحرير الذهبي كان وحده يربط اقتصاد الدامور بالاقتصاد العالمي فانقطع الخيط وهوَت الدامور... أخذ كل تاجر شرانق وكل صاحب مصنع يحصي خسائره ويقدّر التزاماته محاولاً أن يسدّ عجزه عن طريق التوسّع في الاقتراض، فتوالت الإفلاسات و لم يبق صاحب معمل إلاّ ورهن بيته وأملاكه. في أزمة خانقة من هذا النوع، أما كان على الدولة المنتدبة أن تتدخل، أن تسعى لحماية الصناعة الوطنية، أن تنشئ مصرفًا لتسليف الصناعيين بشروط معقولة، ولا سيما أن المستفيد الأكبر من سوق الحرير اللبناني كان تجار مدينة ليون؟ شيء من هذا لم يحصل، بل تفاقمت الحالة واشتدّ الخناق. وداعًا، يا توتة! بعد مئات السنين من التعايش والتعاشق، التزمت الدامور أن تفسخ عقد قرانها مع شجرتها الحبيبة.

*

منهم من يشيد بفضائل الليمونة ومنهم من ينصح باختبار الموزة.

الموز إنتاجه أسرع، إنما الليمونة حياتها أطول ومستقبلها أضمن.

– والأكي دنيا، ما رأيكم بالأكي؟ ألا تلائم أرضنا؟

الداموريون في حيرة. من يا ترى سيختارون بديلاً عن رفيقة العمر؟ بعض الشيوخ ينصحون بالإبقاء على التوت مهما كلّف الأمر، فالتوت، برأي أحدهم، يبقى الأفضل كيفما تقلّبت الظروف وبرهانه على ذلك أن لفظة توت مركبة من ثلاثة أحرف: ت.و.ت. إذا قلبتها تبقى كما هي: ت.و.ت. كذلك كلمة دود... إذن... لم يقتنع المزارعون بهذا البرهان العجيب وظلّوا يبحثون عن زراعة جديدة تقيهم شرّ العوز. مرّت

الأيّام وإذا بهم يخترعون أسلوبًا ناجحًا لمداواة الحاضر وضمان المستقبل في آن واحد، وهو أن يزرعوا موز «ويخمّسوا» بليمون[٧٧] وهكذا بدأ الداموريون يقلعون شجرتهم المفضّلة طاوين معها صفحة مجيدة من تاريخهم، لكنّهم في أغلب الأحيان كانوا يتركون حوالى بستان الموز حزامًا من التوت كي يربّوا عليه «شكاره» أي خمسة أو ستة أطباق دود حرير، علّهم لا يقطعون شعرة معاوية مع الخليلة القديمة. سنة، سنتان وإذا بسهل الدامور يرتدي حلّة جديدة، حلّة لا تزال خضراء، إنما اخضرارها تغير وفي التغيُّر إشراقة أمل. انطوى عهد التوت والحرير فانتقل الناس من حضارة أصيلة إلى تحضُّر مريب: تطوّرت العادات والأخلاق وأساليب المعيشة. كل شيء تغيَّر بتغيُّر الاقتصاد: السَكَن، فرش البيوت، تربية الأولاد، وسائل النقل والتنوير... أتسمح بأن نتوقف قليلاً ونقارن ما بين دامور التوتة ودامور الموزة؟

في عهد التوت كان العمل الجدّي يقتصر على فترة الموسم أي «شيل القز» وقطف الشرانق وهذا كلّه لا يستغرق أكثر من أربعين يومًا[٧٨] فماذا يعمل إبن الدامور بما تبقى من أيام السنة؟ عناية الأرض متروكة للشريك. على الشريك أن يحرث ويسقي ويقلّم الشجر. المالك يقدّم له المسكن والسماد ويعطيه ربع الغلّة وبوسع الشريك أيضًا أن يحسّن دخله بتربية الدواجن أو باقتناء دابّة. الحمار والجمل كانا وسيلة النقل الأكثر انتشارًا والمكاري أو الجمّال كانا ركنين من أركان اقتصاد الضيعة. البروليتاري الذي لا يملك قيراطًا من الأرض لا يعاني من أزمة البطالة فالعمل متوفّر للجميع في مصانع حلّ الحرير وكثيرون من الغرباء نزحوا إلى الدامور ليرتزقوا من مصانعها. أما البورجوازي الصغير صاحب كدنه[٧٩] الأرض أو الكدنتين أو الثلاث فكيف ينفق وقته؟ قبل نشوب أزمة الحرير (سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠) كان أصغر ملاك في سهل الدامور يعتبر نفسه «ذلك السلطان المخفي» الذي يتحدّث عنه المثل[٨٠]. مهما ضاقت رقعة أرضه، فمردودها يكفي لسد مصاريف البيت. الحياة بسيطة والحاجيات رخيصة ومؤونة العائلة مؤمّنة لسنة على الأقل: الزيت، الزيتون، السمن، القورما، والكشك والتين المطبوخ والزبيب والجوز

---

٧٧) أي أن يجعلوا الليمون يتخلّل الموز بمعدّل ليمونة واحدة كل خمسة أذرع.

٧٨) شهر أيار ونحو أسبوع من حزيران. وكان بعضهم يربون موسمًا ثانيًا جزئيًا في الخريف، لكن ورق التوت التشريني لم يكن يعطي النتيجة الجيّدة التي يعطيها الرّبيعي.

٧٩) الكدنة نحو أربعة آلاف متر مربّع.

٨٠) «فلاّح مكفي سلطان مخفي».

داعيك عن القمح والبرغل وسائر الحبوب... كلّها من المُنتجات المحلية وكلها تباع بأسعار زهيدة بينما العملة المتداولة وقوامها الليرة العثمانية ذهب تتمتّع بطاقة شرائية مرتفعة جدًا. لكن الإنسان مهما كان وضعه ومزاجه وحتى لو كان «سلطانًا مخفيًا»، لا بدّ له، إذا تقاعد عن العمل، أن يواجه أزمة فراغ وضجر. إنّ أعظم السلاطين يقول باسكال، إذا فُطِموا عن ملهاة السياسة وابتعد عنهم الندماء والمهرّجون أصبحوا أتعس من أتعس رعاياهم. لذلك تعوّد الداموري، منذ عهد التوت، ارتياد المقاهي والحوانيت سعيًا وراء التسلية. إذا كان من العقّال، تراه يرتدي غنبازًا مقلّمًا بخيوط سوداء ويتمنطق بزنّار أسود ويضع على رأسه طربوشًا أحمر أو أسود ويجلس في صدر المقهى حيث يدخّن النارجيلة ويشرب القهوة متحدّثًا مع أترابه عن شؤون البلدة فإذا ثمّة مشكلة أو خلاف بين شخصين أو عائلتين، فالعقّال لا يدعونه يصل إلى المحكمة بل يحلّونه عشائريًا بحكمة وسرعة لأنّ كلمتهم مسموعة وهم بدورهم يشعرون بمسؤوليّتهم تجاه البلدة. أما الجهّال فمنهم من يولع بالصّيد ومنهم من يقصد الحوانيت. الشاب الأنيق يلبس الغنباز الحرير المزخرف المسمّى «غبانه» أو الغنباز «الستكروزا»[٨١] ويتمنطق بزنّار أحمر وينتعل الحذاء اللمّاع ويخرج باكرًا من البيت ليقضي معظم وقته متنقلاً من مقهى إلى حانوت ومن حانوت إلى مقهى، يعاقر ويسامر ويقامر حتى ساعة متأخّرة من الليل. يقول أحد الشعراء إن الخمرة «تنبح في جوف» شاربها وتجعل منه هاويًا لصياغة القوافي وهذا صحيح. فالداموريون كلّهم، عقّالهم وجهّالهم، كبارهم وصغارهم، كلّهم هواة كأس وشعر وطرب فإذا جنّ الليل كنت تراهم يتجمّعون حلقات في البيوت أو في الحانات ليتنافسوا على قول «القرّادي والمعنّى» أو ليصغوا إلى أحد المطربين وهو يدقّ على العود ويغنّي الأدوار والقصائد. وفي بعض ليالي الصّيف كان يقوم فريق من شباب جمعية مار الياس الخيرية بتمثيل مسرحيّات «ميلودرامية» فيقترضون ألواح الخشب من أحد النجّارين ويرتجلون مسرحًا في دار كنيسة السيدة فيتجمّع الداموريون في تلك الباحة الفسيحة لإحياء ليلة صاخبة متفجّعين لآلام ضحايا القدر كأن حسّهم الباطني ينبئهم بأنّهم هم أيضًا معدّون للتضحية. «رزق الله على أيام التوتة!» يتنهّد قدماء الدامور الذين عاشوا تحت ظلّ تلك الشّجرة المباركة أيام عزّها.

لما حلّ الموز محلّ التوت اختلفت مقاييس الحياة الاقتصادية وتغيّرت أساليب العمل.

٨١) كلمة إيطالية الأصل تعني من الحرير الصّافي.

الموزة بالأصل هي نبتة البلاد الحارّة وتوطينها على سواحل البحر المتوسط ليس بالشيء اليسير بل إنّه يتطلّب أرضًا واقية من الأرياح ويستوجب عناية خاصة ومستمرة: تسميد، نكش الأرض ثلاث أو أربع مرّات، توحيد الفروخ، سقي كل خمسة عشر يومًا في الطقس الحار ثمّ قلع الموز العتيق كل بضع سنوات واستبداله بنصب جديد. برع المزارع الداموري في هذا الفن كما فعل من قبل حين تربية دود الحرير، لكنّه، بالرّغم من براعته وكدّه وجدّه، لم يتمكّن من كسر الطوق الاقتصادي المفروض من قبل الدولة المنتدبة على بلاد مقدّراتها ليست بيدها... البحبوحة والرخاء فقدهما المزارع لمدّة طويلة والسبب في ذلك يعود إلى تدنّي أسعار المنتجات الزراعية وارتفاع أسعار البضائع المستوردة. الأولوية في الحقل الاقتصادي كانت تعطى، لا لإنماء البلاد وازدهارها، بل لتسديد نفقات جيش الانتداب ومصاريف المفوّضية وتنشيط الشركات الاحتكارية[٨٢] وفتح الأسواق أمام البضائع الأجنبيّة. وكانت الدولة المنتدبة قد ربطت قيمة العملة الوطنيّة بالفرنك الفرنسي فبدأ الفرنك يتدهور جارًا معه عملتنا التعيسة. أتذكر عُمَر الزعني؟

– بلا شك، كلّنا غنّينا ونحن صغار «بدنا بحرية يا ريّس... البحر كبير، يا ريّس»... عمر الزعني كان فعلاً شاعر تلك الحقبة التاريخية المليئة بالمفاجآت وخيبات الأمل.

– إذن لا بدّ أنّك تذكر طقطوقته المشهورة: «حاسب، يا فرنك! يا فرنك حاسب»!... رطل الموز الأخضر كان سعره في تلك الأيّام يتراوح بين ١٠ غروش و ١٥ غرشًا وغلّة كدنة الأرض معدّلها الوسط نحو ٢٥ قنطارًا أي أن مردودها السنوي يقدّر بنحو ثلاثماية ليرة وهذا المبلغ زهيد جدًا بالنسبة لمتطلّبات المعيشة فالأجيال الطّالعة أخذت تطالب بمزيد من الرفاهية وتصر على مجاراة العصر في كل مظاهره: الراديو والثلاجة والسيارة الخصوصية أصبحت من ضروريات الحياة، وصار الشروال يخجل من الظهور أمام البنطلون، فاختلّ التوازن بين الواردات والنفقات ونزل صاحب الكدنة والكدنتين إلى طبقة المعوزين «حاسب، يا فرنك»! الفرنك يتدهور واقتصاد بلادنا يتدحرج برفقته إلى المنحدر ومستوى المعيشة يرتفع سريعًا بفضل تدفّق منتجات الصناعة الغربية، عندئذٍ اضطرّ البورجوازي الصغير «أبو كدنة أو كدنتين» أن يفتّش عن مورد ثانٍ

٨٢) شركة مصرف سوريا ولبنان، شركة المرفأ، شركة كهرباء بيروت، شركة مياه بيروت، شركة راديو الشرق، شركة السكة الحديدية، إلخ...

ليسد عجز ميزانيّته. ومما زاد في الطين بلّة إقبال الناس على المدارس ولا سيما المدارس الخاصة. كم وكم من اللبنانيين رهنوا أملاكهم أو باعوها كي يوفّروا لأولادهم لا أقول العلم بل تحصيل الشهادة على أن تكون الشهادة مفتاح الوظيفة والوظيفة باب الحياة اللائقة بالبورجوازي الصغير الذي يكره المغامرة والمقامرة.

عندما توارى طنبر البلدية لجمع النفايات وحلّ محلّه الكميون تحوّل لبنان من بلد إنتاج وتصدير إلى دولة خدمات ووظائف واستيراد. لبنان الصغير كان وطن التوت والحرير، لبنان الكبير صار دولة الموظّفين والتجّار... كان لنا حضارة لبنانية وحسّ لبناني وحكمة لبنانيّة وفطرة تقودنا إلى حلّ مشاكلنا بالّتي هي أحسن. فأصبحنا نستورد كل شيء: السيارات والملبوسات والأغذية والأسمدة والأفكار والحلول. «لقد مرّ، أيّتها الدولة العزيزة، على انتدابك سنوات عديدة ولم نرَ من اهتمامك الشديد إلاّ اهتمامًا منصرفًا إلى تشكيل الدوائر وتنظيم المجالس واستبدال هذا التنظيم بسواه وإلى استبدال أسماء الوظائف بأسماء غيرها... وإلى تكثير الضرائب لصرفها في سبيل تعظيم دولة لبنان الكبير وتكثير رواتب موظّفيها في حين أن دوائر لبنان الصّغير كانت تقوم مقامها وكان راتب أكبر مأمور إذ ذاك لا يتجاوز ألفي غرش»... من تجرّأ على إطلاق تلك الصرخة بوجه الدولة المنتدبة؟ أحد المواطنين الموارنة[٨٣] في كتاب مفتوح إلى المفوّض السامي دي جوفنيل.

— ألا ترى، يا شيخي، في هذه الشكوى لونًا من حنين الموارنة إلى لبنان الصغير؟

— ربما، يا بني.

— حنين الكهل إلى طفولته...

— بل قلق المراهق إزاء نموّ جسمه السريع، نعم، هذا القلق لا يزال يساورنا حتى الآن وهو يفسِّر بنظري نزعة البعض إلى تقسيم لبنان.

*

— سمعتك تقول أن الساعين وراء الوظيفة كانوا بالأصل من البورجوازيين الصغار الذين يكرهون المغامرات. فهل ثمّة داموريون تاجروا وغامروا على عهد الانتداب؟

٨٣) ابراهيم الأسود، «تنوير الأذهان في تاريخ لبنان».

— الداموري بدمه مزارع، يحب الأرض ويحب أن يأكل من ثمار أرضه وتعبه. فلمّا لم تعد أرضه تكفيه لجأ إلى استئجار مزيد من الكدنات وبعد إنجاز مشروع القاسمية لري الجنوب، نزحت بعض العائلات الدامورية إلى جهة عدلون والصرفند وصور حيث استوطنت بين الإخوان الشيعة فالداموري لا يشكو من العقدة الطائفية وحيثما حلَّ بين الفلاحين والمزارعين فهو يشعر أنّه بين أهله ولا شكّ أن المزارع الداموري قد ساهم مساهمة ملموسة في تحسين الساحل الجنوبي ورفع قيمة أرضه.

أما المغامرات فقد ركبها بعض الطامحين. لم يجدوا أمامهم في تلك الفترة من القحط المالي، لم يجدوا منفذًا إلى الثروة ورفاهية العيش سوى التهريب. فلجأ بعض الداموريين إلى تهريب الحشيشة والتنباك وغيرهما. التهريب في ذلك الحين كان ردّة الفعل الوطنيّة البديهيّة، كان بمثابة احتجاج من قِبَل المواطن الطموح على سياسة الجمارك التي كادت تجر البلاد إلى الفقر وتغرقها بالبضائع المستوردة.

— عساهم جنوا الثروات الطائلة جزاء طموحهم ووطنيّتهم؟

— لم يجنوا إلا الإفلاس والسجن. فالجمرك كان لهم بالمرصاد وكانت أحكامه بالغة القساوة. ففي إحدى الليالي العاصفة هجم خفراء الجمرك بغتة على شاطئ الدامور وقبضوا على المهربين بالجرم المشهود فاحتجزوا البضائع والسفينة ثم حكمت المحكمة على المهربين بغرامة نقدية قدرها مليون ليرة في حين لم تكن ميزانية الدولة اللبنانية تتجاوز العشرة ملايين ولما عجزوا عن الدفع أدخلوا السجن.

— هذا على الصعيد الاقتصادي، وعلى الصعيد السياسي كيف كان الطقس؟

— «البحر كبير، يا ريس»! كما يقول الزعني. الطقس غير مستقرّ والبحر هائج ومائج...

— والبحرية؟ أكانت زنودهم قويّة ونيّتهم صافية؟

— والبحرية تارة يصارعون الأمواج وتارة يتصارعون فيما بينهم تاركين للأمواج مسؤولية قيادة الزورق... الوضع الاقتصادي المتدهور وتسلّط المفوّض السامي ومستشاريه على الدوائر الحكومية جعلا شرفاء المواطنين يجاهرون باستيائهم. ومن طرائف ما حدث في ظل الانتداب أنه في ربيع سنة ١٩٣٢ رشّح النوّاب بمن فيهم النواب الموارنة وبمن فيهم الرئيس إميل إدّه، رشّحوا لرئاسة الجمهورية خلفًا لشارل دبّاس الشيخ

محمد الجسر وأشيع أن الكرسي البطريركي وافق على الترشيح لكن المفوّضية أبت إلاّ أن تكون مارونية أكثر من الموارنة فعمدت إلى حلّ المجلس وتعليق الدستور. لم يرق الدولة المنتدبة أن يتنازل الموارنة عن امتياز الرئاسة لشيخ سنّي يثقون به. معركة الاستقلال بدأت من ذلك الحين والقدر المحتوم كان قد عيّن الدامور لتضحّي مرّتين على مذبح الاستقلال.

والحق يقال أن ساحة المعركة كانت أوسع بكثير من حدود لبنان.

* ففي العراق بلغت الاضطرابات أشدّها واضطرّت جامعة الأمم أن تعلن نهاية الانتداب الإنكليزي على البلاد سنة ١٩٣٢.

* في فلسطين شرع السكان العرب يثورون على أمل التخلّص من وطأة المدّ الصهيوني (١٩٣٥-١٩٣٩).

* في سوريا قامت الكتلة تندّد بالانتداب الفرنسي وتطالب بتسلّم الحكم[٨٤].

* في مصر قام حزب الوفد بزعامة زغلول باشا ثم بزعامة نحاس باشا يطالب بالاستقلال (وقد ناله في عام ١٩٣٦)... في الهند، في الصين، في برمانيا، في أندونيسيا... استفاقت الروح الوطنيّة من سباتها العميق وتجسّدت بمجاهدين مشهورين مثل المهاتما غاندي... فلم يكن بوسع لبنان أن يبقى راقدًا وأن يتخلّف عن مسيرة القافلة العربية.

من ذلك الحين أصبح اللبنانيون ولاسيما المسيحيون منهم تتجاذبهم نزعتان متناقضتان: الرغبة والرهبة: رغبة التحرّر من نير الاستعمار والسير في ركاب قافلة، على ظهور جمالها الكنوز، ومن جهة أخرى الخوف من طغيان تيار عربي – إسلامي يجرف الأقليّة المارونية ويقذف بها إلى مخيمات أهل الذمّة حيث تضيع الميزات مع الامتيازات.

في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٦، لما غادر حبيب باشا السعد كرسي الرئاسة، كان ابن الدامور المرحوم أسعد عقل نقيبًا للصحافيين، فشيّعه بكلمة أشار فيها إلى الظروف

٨٤) في سنة ١٩٢٥ أمر المفوض السامي الجنرال سراي بقصف الشام لإخماد ثورة الشعب. وفي رد الكتلة الوطنية السورية على البيان الذي ألقاه المفوض السامي بونسو أمام لجنة الانتدابات في جنيف سنة ١٩٣٢، نسجل الفقرة التالية: «إن الأمة السورية لم تعد تطيق بقاء الحكم المطلق الذي من طبيعته ضياع المسؤولية وجعل الحكم في أيدي موظفين ضعفاء لا كفاءة لهم ليكون ذلك حجة على قصور السوريين وعجزهم عن الحكم»...

العصبية التي يجتازها لبنان. وفي تلك السنة فتحت معركة عنيفة لخلافة الباشا بين إميل إدّه وبشارة الخوري[٨٥] فانقسم الداموريون مثل غيرهم من أبناء الجبل إلى إدّيّن وخوريين وبدأ سوس الحزبيات السياسية ينخر عقد التضامن بين أبناء البلدة الواحدة.

– أخشى أن تكون أعطيتنا، يا شيخي، صورة غير واقعيّة عن الدامور. أنا أخالفك بالرأي وأعتقد أن العنعنات الحزبية والعصبية القبلية كانت موجودة على زمن أجدادنا وأجداد أجدادنا. ألم يقم مثلاً في أول عهد المعلّقة تناحر سافر بين آل عون وآل غريِّب؟ ثم بين جبهة العائلات من جهة وتكتّل «الأغراب» كما يسمّونهم؟

– صحيح. لكن الأزمة لم تكن سياسية وكانوا يستعملون لشفائها علاجًا مكفولاً مئة بالمئة.

– وما هو؟

– المصاهرة: تبادل النساء ما بين الأسر المتباغضة. إسمع، يا بني! إن بذور التفكّك والشقاق موجودة في كل زمان، كما أن سوس الحزبيات والعصبيات العائلية يعشعش في كل زاوية من زوايا هذا البلد وأنا أعتقد مع بعض الفلاسفة أن التحاسد والتباغض هما أساس الحياة الاجتماعية[٨٦] لكن إذا كان لا بدّ من الاختيار بين الزواج أو الانتحار أفليس الأفضل أن نتزوّج؟ إن أجدادنا، بالرغم من تحاسدهم وتنافرهم، كانوا يغلّبون الحكمة على الأهواء الطائشة ويجمعون كلمتهم على ما فيه صالح البلدة. ربّما كانوا متخلفين عنا ثقافيًّا، لكنّهم كانوا أصفى عقلاً، لأن حياتهم كانت أبسط وأقرب إلى الطبيعة كما أن فلسفتهم في الحياة كانت أقرب إلى الفطرة. أما اليوم فحالتنا محيِّرة: نحن لا نريد أن نموت ولا نستطيع أن نعيش. الهجر مستحيل والزواج المتبادل محرّم. التقسيم غير وارد والاندماج غير ممكن. التقدّم الحضاري أصبح مرادفًا لمزيد من التعقيد. في لغة الغرب يعبِّرون عن ذلك بكلمة sophistiqué.[٨٧] فالأسلحة لا تكون عصرية إن لم تكن معقّدة وبنيتنا الشعورية كذلك وكذلك إدارات الدولة وصالات المجتمع. أما سمعت بحرب الوردتَيْن[٨٨]؟

٨٥) في تلك الدورة فاز إدّه على منافسه بأكثرية صوت واحد: ١٣ ضد ١٢.
٨٦) زعم فرويد Freud في تحليلاته أن أساس المجتمع يرتكز على الجريمة...
٨٧) والكلمة فيها بالأصل معنى التضليل.
٨٨) La guerre des deux roses

– حرب الوردتين مشهورة في تاريخ انكلترا.

– في الدامور أما سمعت بحرب «اللياسَيْن»؟

– «اللياسَيْن» كلا. ماذا تعني بذلك؟

– في أول عهد المتصرّفية، كان التنافس على أشدّه ما بين آل عون وآل الغريِّب. التنافس على الجاه طبعًا وأحيانًا على الثروة. الوجيه الياس لحود عون فاز بمشيخة الصلح فاستشاط الغريبيون غضبًا وكان الياس لحود شاعرًا يحسن نظم القوافي ويجيد الهجاء. وكان له منافس من آل الغريِّب يدعى هو أيضًا الياس، الياس كريِّم وكان هو أيضًا يحسن النظم ويتبارى أحيانًا مع زوجته الأديبة بحوار شعري... ذات يوم قرّر الياس كريِّم أن يطرق باب الثروة والجاه بفتحه في الدامور مصنعًا لحلّ الشرانق. فلم يرق الأمر آل عون وأخذوا يسخرون من هذه الكرخانة الغريبيَّة مشيعين أنها لا تصلح للحلّ لأن دواليبها «تنتِّف» خيوط الحرير وتحطّ من قيمتها الشرائية. أول من شنَّ الهجوم كان شيخ الصلح بذاته الياس لحود عون إذ قام بهجاء كرخانة نظيره. وفي ذات صباح أفاق الياس كريِّم الغريِّب من النوم فوجد هذهِ الأبيات معلّقة على باب داره:

«تبًّا لها كرخانة التنتيفِ
يأتي إليها الماءُ بالتلقيف
وبأحسن الحالات بات حريرها
بالسوق يُشرى أقة برغيفِ»

فردّ عليه صاحب الكرخانة على الفور بالأبيات الآتية:

«تبًّا لشيخٍ بالأنام عنيفِ
شكس الطباع ملازم التجديفِ
ولُوه مشيخةً ليصلح بينهم
فأتى كذئبٍ مصلحٍ لخروفِ»...

وأرسل من علّق الأبيات في ساحة البلدة على باب الحوانيت.

احتدمت المعركة وتدخّل القائمام وتصاعد التحاسد والتباغض حتى كاد يبلغ درجة

الانفجار. فاجتمع العقّال ورأوا أن حسم المشكلة لا يكون إلاّ بالمصاهرة وكان لأحد وجهاء آل الغريِّب ابن وحيد يدعى يوسف، يوسف فرحات، فزوّجوه ابنَة الشيخ الياس لحود عون. وتولّى هو المشيخة على مدى الحياة برضى الفريقين.

*

قررت أن أمضي ليلة ثانية في الدير بصحبة الشيخ لكي ألتقط كل ما بقي في جعبته من ذكريات وتحليلات. أريد أن أزيح الستار. أسعى لوصل الحبل بين الحاضر والماضي. هل في تاريخ البلدة شيء يستوجب هذه التصفية أم هو القدر الغاشم؟ أحاول أن أفهم في سبيل أية قضية أحرقت الدامور منازل وقلوبًا. حالة الشيخ الصحيّة تسوء. أعصابه لن تتحمّل طويلاً الضغط النفساني الذي يعاني منه. كلّما اعترته نوبة، خلتُ أن قلبه سيتوقّف وأنه سيغادر الحياة قبل أن يبوح لنا بمعلوماته كلها. واللغز... اللغز الذي وعدت نفسي بحلّه، أيُطبِق عينيه ويبقيه دفينًا في صدره؟ الحفيد الصغير، سارق البيض، وحده بين الأحفاد يهتم بصحّة جدّه. عندما ينتاب الشيخ عارض الرجفة تتحرّك الشفقة في قلب الصغير، فيأخذ بيد جدّه المتشنّجة ويضمّها إلى صدره ويقبّلها بحرارة ثم يتكمَّش بقبضتها ويشدّ عليها كأنّه يخشى أن يفلت الجَدّ منه ويهجره إلى الأبد.

في الصباح الباكر استفاق الشيخ مذعورًا: «رأيت في منامي السنديانة تشتعل»، قال وهو يرتجف: «لن أدفن في الدامور، يا صاح، لن أدفن في قبر أجدادي... مهما تصارعتُ مع أجَلي، لن أستطيع أن أضبط خفقات قلبي حتى أشاهد الفصل الأخير».

حاولت أن أهدئ روعه ولفّقت خبرًا مفاده أن قضيّة المهجَّرين ستحلّ في القريب العاجل وأن المراجع العليا وعدت بأن الداموريين سيعودون إلى بيوتهم في مطلع الأسبوع القادم. فهزّ برأسه وابتسم ابتسامته الكئيبة وأجاب:

– وهل بقي لنا بيوت لنعود إليها؟ لقد نسيت بيتي، نسيت كل شيء. لكني أريد أن أدفن في ظلّ كنيسة مار الياس القديمة. أليس هذا من حقّي؟ أليس من حقوق الإنسان أن يدفن في بلده وأن يرقد بسلام في قبر أجداده؟ والآن، ذكّرني، أين وصلنا في حديثنا؟

– لقد حدّثتنا عن حالة الدامور أثناء الحرب العالمية الأولى وعن كساد موسم الحرير وسياسة الجمارك أيام الانتداب... لكنّك لم تشرح لي حتى الآن نظريّتك حول كلمة دامور.

– ومن أين يكون لي نظرية في مثل هذا الموضوع؟ أنا لست بعالم آثار واللغات السامية ليست من اختصاصي... خاطرة مرّت ببالي ذات يوم وأنا أتجوّل في جوار النهر... أتحب الموسيقى الألمانية؟

– ما لنا وللموسيقى الألمانية. لا تحاول التهرّب! طبعًا إني أتذوّق بعض المعزوفات لباخ وموزارت وبيتهوفن... لكن أرجوك أن لا تغيّر الموضوع. أما وعدتني بفك اللغز؟

– في هذه الأيام لا تنفع اللجاجة. اللغز ستفكّه أنت، ستفكّه قريبًا... باخ وموزارت وبيتهوفن لا يمثلون الرومانسية الألمانية بما فيها من تَوق نحو إطلاق القوة وتمجيد البطولة. عندما أقول الموسيقى الألمانية، أعني فاغنر، فاغنر سيغفريد والأُوپرا، فاغنر وحَسْب. من كان يظن في الثلاثينات أن موسيقى فاغنر وفلسفة نيتشه ستؤدّيان عبر منعرجات التاريخ والسياسة إلى خراب الدامور. كان هتلر ينتشي من هذه الموسيقى ويتغذّى من أفكار نيتشه عندما قفز قفزته الرهيبة في المجهول وأمر جيشه باجتياح بولونيا. حينئذٍ أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا وسرعان ما اتّسع ميدان القتال حتى اشتعال العالم بأسره. في بدء المجابهة كان الجيش الألماني يطير من نصر إلى نصر فاجتاح النروج والدانمرك وهولندا وبلجيكا وفي ربيع سنة ١٩٤٠ تمّت سيطرته على فرنسا. في الدامور بدأ بعض الشبّان يتعلّمون الألمانية والإيطالية. أتذكر صاحب الحانة بالقرب من بيتنا القديم: ج.هـ. كان من أشد المعجبين بانتصار الجيش النازي. في إحدى الليالي دخل عليه من النافذة مع شعاع القمر... مع شعاع القمر، أبمكانك أن تتصوّر؟

– ومن دخل عليه؟

– الهر هتلر بذاته وقال له: عندما أحتلّ الدامور، سأخصّك بزيارة! أحلام طبعًا... الداموري يثأر لنفسه من رتابة الحياة باختراع أحلام من هذا النوع. لم يأتِ هتلر إلى لبنان. إنما أرسلت لنا حكومة المارشال بتان مفوّضًا ساميًا من مؤيّديها وهو الجنرال دانز.

– صاحب القول المأثور: «إذا سقطت الدامور، تنتهي الحرب في لبنان».

– نعم، وهكذا تمّ الحلم وحظينا بزيارة الفهرر، إنما بالنيابة. وصل دنز إلى بلادنا في كانون الأول سنة ١٩٤٠ فاستقال الرئيس إدّه وعُيِّن محلّه الرئيس ألفرد نقاش. في ربيع سنة ١٩٤١ بدأ الانكليز والديغوليون يهاجمون جيش الجنرال دنز جوًّا وبرًّا وبحرًا، انطلاقًا من الجنوب وقبيل الهجوم أعلن الجنرال كاترو، قائد الحملة الديغولية بالاتفاق مع

الجنرال سبيرس، أعلن من وراء حدود فلسطين، عزمه على تحرير لبنان ومنحه الاستقلال.

– إذن استقلال لبنان نبت في أرض فلسطين؟

– نعم، في تلك الأرض الخصبة بالمعجزات... نعم، من الجنوب أتتنا السيادة مع دوي المدافع. بدأ الطيران والأسطول الانكليزي بقصف مراكز عدوّه وبدأت الغارات الجويّة على بيروت فطلب الرئيس نقّاش من الجنرال دنز، طلب بإلحاح أن يعلن بيروت مدينة مفتوحة، فكان له ما طلب وقرّر أركان جيش الجنرال دنز أن يخوضوا المعركة الحاسمة في الدامور. «إذا سقطت الدامور، تنتهي الحرب في لبنان»! انتشر الخبر في كل أرجاء البلاد فاتّجهت أنظار العالم بأسره نحو هذه البلدة الباسلة، وأصبح مصير لبنان ومصير استقلاله رهنًا بسقوط الدامور.

*

أخذت مدفعيّة الجنرال دنز تتمركز على التلال المطلّة من جهة الشرق وأخذت فرقة الهندسة تحفر الخنادق بين صخور التلّة المسماة «الحمرا». وتحصّنت حامية من الجنود في بيوت البلدة بين السكان الآمنين وعندما اقتربت طلائع جيش العدو من خط الدفاع، نُسِفَت الجسور وانصبّت القذائف ورصاص الرشاشات الثقيلة على كل بقعة يحاول المهاجمون التسلّل إليها وكانت طليعة الجيش المهاجم تتألّف من أوستراليين ومن بعض الديغوليين وقد حاول الأوستراليون عدة مرات اقتحام خط الدفاع وعبور النهر لكنّهم رُدّوا على أعقابهم وتكبّدوا خسائر جسيمة. في هذه الأثناء كان الأسطول الانكليزي يقصف باستمرار وبدون هوادة بلدة الدامور والتلال المشرفة عليها لهجوم المشاة. فتهدّم عدد من المنازل ونزح الداموريون إلى القرى المجاورة.

هربت أنا وعائلتي مشيًا على الأقدام باتجاه بعورته ومنها توجّهنا إلى عبيه، فلحق بنا قصف الأسطول، فلجأنا إلى البنّيه ثم إلى عين كسور ثمّ إلى سوق الغرب وكثيرًا ما نزلنا في بيوت أخواتنا الدروز فكانوا يواسوننا ويضيفوننا أحسن ضيافة. استمرّ حصار الدامور على تلك الصورة نحو شهر حتى أيقن أركان الجيش الانكليزي والديغولي أن الدامور حصن لا يُقتَحَم، عندئذٍ لجأوا إلى خطّة التفافية، أوهموا عدوّهم أنهم سيقومون مرّة أخرى باقتحام خط المواجهة من السعديات فحشدوا العساكر وصعّدوا القصف على تحصينات الحمرا فيما تسلّل الأوستراليون من جهة الدلهمية إلى ملتقى النهرين ثم إلى

قرية البوم، (حاليًا المشرف) فاحتلّوها ثم انقضُّوا من الوراء على الجنود المتحصّنين في خنادق الحمرا حيث دار القتال بالسلاح الأبيض فانهار خط الدفاع وبدأ الأوستراليون يتدفّقون على الدامور وفي ١٠ تموز ١٩٤١ تمّ احتلال البلدة بعد أن قضى المهاجمون نهائيًا على مقاومة الشرذمة التي ظلّت متحصّنة في البيوت لتغطّي انسحاب الجيش المهزوم ولما بدأ المشرّدون يعودون إلى منازلهم المخرّبة وجدوا آثار الدماء تلطّخ دورهم. لا أزال أذكر أني لما دخلت منزلي عائدًا من سوق الغرب وجدت في تختي جثة جندي أسود شاب سابحًا في دمه وحديقتي قد تحوّلت إلى مقبرة صغيرة دفنوا فيها عددًا من القتلى. دَفَعَت الدامور غاليًا ثمن انتشاء هتلر من موسيقى فاغنر وفلسفة نيتشه: عشرات الملايين من الخسائر المادية بالإضافة إلى تشريد أهلها وقتل عدد منهم[٨٩] لكن سقوط الدامور كان الفدية التي عيّنها القدر ليعود السلام ويفوز لبنان باستقلاله.

أول ما فعله الجنرال كاترو بعد تسلُّمه مقاليد السلطة كان تثبيت ألفرد نقّاش في رئاسة الدولة وتعيين أحمد الداعوق رئيسًا للوزارة وقد قام الرئيس نقاش بزيارة الدامور المنكوبة متفقّدًا، معزيًا ووعد الداموريين بأن حكومته ستعمل كل ما في استطاعتها لتعوّض عليهم[٩٠] وبعد مرور بضعة أيام نقل الصليب الأحمر رفات القتلى من الحدائق إلى مقبرة بالقرب من الحمراء حيث كان القتال قد دار بالسلاح الأبيض وأسفر عن سقوط عدد كبير من الضحايا.

– الحمراء... وهذا الاسم أيضًا فيه لغز. لماذا أعطوها هذا اللقب؟ أبسبب لون تربتها؟

– لا! لا يوجد فيها تراب أحمر ولا صخور بهذا اللون وقد سألت سكان المحلّة عن السبب فحاروا جوابًا وأجمعوا على القول أنه لقب قديم جدًا يجهلون أصله. وبالفعل إذا تمعّنت قليلاً في أسماء التلال المحيطة بنهر الدامور وجدت فيها رموزًا مقلقة. فالضفّة الجنوبية تتألّف من: اللاهبيه والدلهميه والأبيّه والبأسه...

– البأسه، ربما البائسه؟

– ربما. وعلى الضفة المقابلة للبائسه: الحمراء.

٨٩) نذكر من القتلى أسماء المرحوم غالب شكيبان وسليم مرعي وطانيوس زينه ونقولا القزي.
٩٠) عيّنت الحكومة لجنة لتخمين الأضرار في الممتلكات لكنها لم تدفع سوى ١٠٪ من الخسائر.

– أما قلت لنا، يا شيخي، أن معارك ضارية دارت في تلك البقعة منذ فجر التاريخ وأن جحافل المتحاربين كانت دائمًا تتصادم على هذه التلّة الاستراتيجيّة بالذات.

– بكل تأكيد.

– إذن لا بدّ أن يكونوا لقّبوها الحمراء لأنها تخضبت بدماء شعوب كثيرة...

وفجأة لاح في فكري وميض. أيقنت أن مفتاح اللغز أصبح في قبضتي، فتابعت بلهجة الظفر:

– والدامور ألم تنطلق في القديم من جهة الحمراء؟

– نعم: من ضفة النهر الشمالية حيث استوطن الداموريون الأوائل ليرتزقوا من تقطيع المارّة للنهر. كما أن مصر هي عطيّة النيل كذلك الدامور هي عطيّة نهر الدامور.

– ولا يخفى عليك أن عددًا كبيرًا من القرى اللبنانية ينتهي اسمها بهذين الحرفين: الواو والراء، مثل شحرور، كفور، بيسور، عازور وصور ودامور...

– نعم، وأحيانًا تتحوّل إلى صيغة المؤنّث: «وره»، مثل عاقوره، ناقوره، مزموره، شتورا، عينطورا... والأرض العالية، بالسريانية، طور، والمنخفضة: غور، والقاحلة: بور...[٩١] وأورشليم تعني أرض السلام...

– إذن من المحتمل جدًا أن تكون دامور مركبة من لفظتي: دام – ور. أرض المعارك، تلّة الدم المهدور...

– هذا هو اجتهادي، يا بني، إنه مجرّد افتراض أوحاه لنا تاريخ المنطقة، والإسم لا يكفي للدلالة على الأصل، لكنه يلقي بصيص نور على طريق الباحث. سألت يومًا أحد العلماء الضالعين في اللغات السامية عن رأيه في الموضوع، فأجابني أن في أصل الكلمة لَبسًا وأن لفظة «دام» قابلة لتفسيرين فقد تعني الديمومة وقد تعني اللون الأحمر، لون الدم، فإذا صحّ اجتهادي تكون كلمة دامور لقبًا أطلقه الأقدمون على منطقة النهر لغزارة

٩١) «كلمة «أور» تعني الشِق في الجبل، المغارة، الوهدة، المُنخفَض. كما تعني أيضًا النور» عن الدكتور أحمد داود (التزوير الجغرافي لأحداث التوراة.) ومدينة أور السورية الأثرية كانت وطن ابراهيم الخليل وقد كشفت مراسلات تل العمارنة أن الأموريين امتدّت سطوتهم على معظم المناطق اللبنانية السورية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

الدماء المهدورة فيها أو لاعتبارها موطئ الإله الدائم كجارتها خلده وبما أن الفينيقيين كانوا يؤلهون الأنهار، جعل الصيدونيون من النهر الذي يحمي حدود مملكتهم لجهة الشمال إلاهًا سموه «دامور» على اسم الأرض التي شيَّدوا عليها هيكلاً له، ثم حرّف اليونانيون هذا الاسم فأصبح داموراس أو تاميراس. فالدامور إذن تحوي النقيضين: سفك الدماء والفناء وبالوقت ذاته الديمومة والتجديد. هذا الاجتهاد يلقي نورًا ساطعًا على صلاة الكاهن الصيدوني:

«إلى هيكلك المعطَّر يأتي فينيق ودامور: فينيق المجنَّح الذي ينعتق من شيخوخته ويولد نفسه بنفسه، ودامور، ابن أوران، الإله الذي يعمِّر ويدمِّر ويتخذ من اللهيب حياة جديدة».

*

من الاستقلال إلى الهجرة
(١٩٤٣-١٩٧٦)

– في ذكرى استقلال لبنان هذه السنة، كتبت جريدة النهار:

«ليست ذكرى الاستقلال وإنما ذكرى نصف الاستقلال. فقبل ثلاث وثلاثين سنة حقق بشاره الخوري ورياض الصلح الاستقلال السياسي عن فرنسا. ولم يستطع المجتمع اللبناني بعد ذلك أن يحقق النصف الآخر وهو الاستقلال الداخلي من أجل الإنسان، استقلال الإرادة الذاتية والإرادة الاجتماعية فضلاً عن الإرادة القومية...»(٩٢)

فما رأيك، يا شيخي، بهذا القول؟ أصحيح أنّا لا نزال مثل العاشق الأفلاطوني، نفتش عن نصفنا الضائع؟

– صحيح، ولو كانت عبارة «الاستقلال السياسي» في عصر القنابل الهيدروجينية تفتح الباب لكثير من التحفظات، فكل دولة لا تملك مفاعلاً ذريًا أصبحت في أيامنا هذه تشكو من مركّب النقص وتعتبر استقلالها أمانة في عنق الدول العملاقة. والحقيقة هي أنّ الاستقلال منذ البداية كان يتمخَّض بحرب أهلية لأنه بإزاحة نير الوصاية عن رقابنا أتاح للعصبيات الموروثة أن تتحكَّم بمصيرنا فأرجعنا تحت ستار الديمقراطية البرلمانية إلى عهد «المقاطعجية» وأصبحنا، مثل حديثي النعمة، نتباهى بحريتنا وسيادتنا ونحن نجهل معناهما العميق. فانقسمنا، مثلما انقسم أجدادنا إلى قيسي ويمني أو أحمدي وعسّافي أو يزبكي وجنبلاطي، انقسمنا أحزابًا وفرقًا وطوائف تتناظر وتتنابذ.

– ولكن، يا شيخي، لا يخفى عليك أن تعدد الأحزاب وتنافسها على الحكم هو من صلب الحياة الديمقراطية.

– بكل تأكيد. إنما لا يخفى عليك أنت أيضًا أنّ تنافس الأحزاب في البلدان العريقة في ممارسة الديمقراطية يرتكز على أساس مبادئ وبرامج واضحة تملي على الحزبيين حلولاً معينة ازاء المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تتخبط فيها بلادهم، أما عندنا فشخصية الزعيم هي التي تستقطب الجماهير بقطع النظر عن الحلول. ولماذا؟ لكونه يجسِّد إحدى العصبيات الكامنة في صميم بنيتنا الشعورية فكثيرًا ما تعود شعبية الزعيم ونجاحه لا إلى

---

٩٢) جريدة النهار – ٢٢/١١/١٩٧٦.

عبقريته وإخلاصه وبعد نظره بل إلى ما تتوسم فيه من طاقة هجومية، وكدت أقول عدوانية، تجاه الخارجين عن عشيرتنا.

– وكيف تفسِّر هذه الظاهرة؟

– أعتقد أنها تنبع من الإرث التاريخي الذي يجعلنا نشعر دائمًا أنّا في مركز دفاع عن النفس وأن كياننا وكرامتنا تتعرضان إلى الامتهان إذا استضعفنا الفريق الآخر. ولنقلها بصراحة، ان اللبناني لا يثق بدولته وباستقلاله بقدر ما يثق بالزعيم الذي يحميه من الدولة ومن قوانينها المزعجة ويؤمِّن له، بفضل نفوذه، سبيل العيش والإثراء. نحن، في صميمنا، لا نزال عبدة أصنام وقد قلت لك سابقًا ان أهل لبنان ظلّوا أوفياء لأصنامهم بعد انتشار المسيحية، ليس فقط ببضع سنين بل بعدّة قرون وحتى بعد أن أصدر الإمبراطور تاودوسيوس (سنة ٣٩٢م.) أمره الشهير بإقفال الهياكل. فنحن بدمنا وثنيون، لا مسيحيون ولا مسلمون. هل تأملت قليلاً في ما يحلّ بالحزب السياسي في بلادنا عند موت القطب الذي يبلور نزعات العشيرة؟ ماذا حل بالحزب الدستوري بعد وفاة الرئيس بشاره الخوري؟ تبخَّر... وماذا حل بالحزب القومي السوري بعد قتل أنطون سعاده؟ انشقّ...

– والدامور، كيف كان انعكاس الاستقلال على حياتها الاجتماعية والاقتصادية؟

– تحت ستار الديمقراطية البرلمانية، تسربت جراثيم العصبية الحزبية إلى الداموريين فانقسموا بادئ ذي بدء إلى دستوري ووطني. وأخذوا يتناحرون بعناد داموري... وكثيرًا ما أدّت بهم غيرتهم الحزبية إلى عرقلة مصالح البلدة ومساعي العاملين لعمرانها. فإذا قام أحد الوطنيين مثلاً وطالب بإنشاء مجارير للدامور أو بفتح ثانوية حكومية أو بشقّ طريق في السهل، يتحرك بعض الدستوريين من وراء الكواليس لإفشال مشروعه والعكس بالعكس. والأنكى من هذا كله أني لما درت على جيراني وأصحابي أستفهم عن الفرق بين وطني ودستوري، استقبلوا سؤالي كلهم بابتسامة شفقة، ولما أصررت وأحرجتهم، أجابوا وعلى وجوههم براءة الطفولة: «ولو! ليش عمتعمل حالك حمار! مش عارف ان الدستوري يعني بشاره الخوري؟»

وتعوّد الداموريون ان يشاهدوا كل أربع سنوات التمثيلية ذاتها، إذ يقبل موسم الانتخابات النيابية فتنشب معركة الصور واليافطات بين الأزلام والمناصرين وفي اليوم المعيَّن تفتح بورصة الأصوات على يد السماسرة فتلتهب الحزازات مع الجيوب وتتضاعف النكرزات ويدور المرشحون أو سماسرتهم على ذوي النفوذ في البلدة

متزلفين إليهم، سائلين اياهم عن حاجاتهم، واعدين بقضائها. لا يسأل احد عن برامج المرشحين الإصلاحية: دوافع الناخب تنحصر في محيطه العائلي وفي الخدمات التي يأمل الحصول عليها من قِبَل المرشح في حال فوزه.

أتعرف قصة «بو كلاب»؟ كان يعيش في الدامور رجل محترم اسمه يوسف ب.ف.، لكن الداموريين أطلقوا عليه لقب «بو كلاب». لماذا؟ لا أدري. وبو كلاب هذا ربّ عائلة كبيرة وبوسعه أن يعطي عددا لا بأس به من الأصوات لصالح اللائحة التي يناصرها. لذلك كان المرشحون يتبارون على اجتذابه فكلما اقترب موعد الانتخابات يتنافسون في دعوته إلى موائدهم ويرفعون الكؤوس على صحته ويتحاشون مناداته بلقبه فلا ينادونه إلا: «خواجه يوسف». «أهلا وسهلا بالخواجه يوسف! – كلنا بأمر الخواجه يوسف... أي خدمة للخواجه يوسف!» فيغتر يوسف بهذه اللياقات المفرطة ولكن عندما تنتهي عملية الاقتراع وتقفل الصناديق يعود الجميع إلى مناداته بلقبه ثم يغوص يوسف في عالم النسيان لمدة أربع سنوات، فلا من يكترث بوجوده ولا من يبرّ بوعوده. في إحدى الدورات أتاه مرشح متملّقًا متزلّفًا كالعادة ولما بادره بالسلام قائلاً: «نهارك سعيد، يا خواجه يوسف!»، أجابه يوسف على الفور: «الآن خواجه يوسف، لكن بعد أن أسقِّط الورقة، فبو كلاب، اصطفلوا ببعضكم وحلّوا عن سمايي!»

أجل سرعان ما اكتشف الداموريون واللبنانيون عامة حقيقة ديمقراطيتهم البرلمانية فقرر أكثر من ٥٠ بالماية منهم أن يقولوا للسياسيين ما قاله بو كلاب: «حلّوا عن سمائنا!»[٩٣] سماء لبنان ما أصفاها وما ألطف نورها لو «يحل» عنها محترفو السياسة!

– أراك تعود دائمًا إلى نغمك المفضل: «المقاطعجيه» ومحترفي السياسة، كما لو كان لك عليهم ثأر.

– ليس لي ثأر على أحد، لكن مطالعتي لتاريخ بلادي كوّنت فيّ قناعة تامة بأنّ الإقطاعية أصل البليَّة. حتى اني بتُّ أؤمن بالتناسخ لما رأيت، وأنا أقلِّب صفحات التاريخ، كيف تتقمَّص روح الإقطاعيين في كل عهد بأجساد ووجوه جديدة. مثل فينيق

---

٩٣) بلغت أعلى نسبة للمقترعين في لبنان ٦٠ بالمئة من أصوات الناخبين. أَما المعدل العام فهو يتراوح بين ٤٥ و٥٥ بالمئة [المواطن والانتخابات – نادي تشرين الثاني ١٩٦٨].
– ... وقد ورد في دراسة النادي المذكور: ان نسبة الأصوات المشتراة تبلغ، حسب إحصاءات رسمية، ٣٠ بالمئة من أصل الأصوات المقترعة وفي بعض الأحيان ٤٠ أو ٥٠.

المجنَّح، ينبعثون من رماد عائلاتهم ويعودون إلى ممارسة رياضتهم المعتادة: جرّ الناس إلى التباغض والتحاسد، إثارة الغرائز البشعة وتقسيم أبناء البلد الواحد فرقًا وشيَعًا لكل منها صنم تعبده وتنفذ أوامره أأخطأ أم أصاب، فتتحول كل منطقة، لا بل كل حيّ وكل شارع إلى دويلة يملك عليها مدى الحياة البيك فلان أو الشيخ فلان. الدولة تقف بينهم حَكَمًا لا حاكمًا. هم يتقاذفون الكرة والدولة تصفر وتسجّل الإصابات. هذه ديمقراطيتنا.

– أما أنا فأخالفك في الرأي. أنا مقتنع مع السواد الأعظم من اللبنانيين بأن الطائفية هي أصل البليّة فلولاها لما استطاع مثيرو القلاقل إشعال الفتن وجرّ الناس إلى التقاتل. وأنت بذاتك اعترفت «ان الزعيم في بلدنا لا يرتفع إلى منزلة القطب إلا بمقدار ما يجسّد إحدى العصبيات الكامنة في بنيتنا الشعورية». قولك هذا بمثابة إقرار بأنّ أصل البليّة كامن فينا وليس في الزعماء «المقاطعجيه» كما سمّيتهم.

– صحيح! صحيح أنّ أصل البليّة كامن في بنيتنا الشعورية، لكن لولا مناورات أصحاب الإقطاع وتدجيل دعاتهم، لتطوّرت تلك البنية على مرور الزمن ولاخترقنا جدار التنابذ والمراوغة فتحررنا من كابوسنا. الطائفية، يا بني، الطائفية بحدّ ذاتها عامل توازن وتناغم بين الناس، لا بل عامل إثراء، إثراء مادي وثقافي وروحاني. إنما محترفو السياسة هم الذين استنبطوا منها مدعاة لتبادل الخوف وكلما قضت الحاجة شهروها سيفًا بوجه أعدائهم. ألا تراهم أحيانًا يشقون أبناء الطائفة الواحدة وهم يتنازعون العروش والتيجان لهم ولأولادهم.

– هنا أيضًا أخالفك في الرأي، يا شيخي. أنا أرى أنه ينبغي التمييز.

– التمييز؟

– نعم، التمييز بين السياسي الذي يعمل بوحي من ضميره ووطنيته وأولئك الذين اقتفوا آثار الدكتور فوست Faust فباعوا نفوسهم للشيطان.

– ربما، يا بني، لكنني لا أستطيع أن أغفر للذين ساسوا أمورنا منذ تحمّلنا مسؤولية الاستقلال لا أستطيع أن أغفر لهم عجزهم عن تدارك الهوّة التي سقطنا فيها فالسياسة هي فنّ تدارك الأمور.

– النزيه يفتقر أحيانًا إلى شيء من الحنكة.

– النزيه يفتقر إلى الحنكة والمحنكون يفتقرون إلى النزاهة: النتيجة هي ذاتها. كان أحد أساتذتنا، ونحن طلاب في جامعة القديس يوسف، يردد أثناء تشريحه لشخصية أدهى سياسي عرفه تاريخ فرنسا، أعني به الوزير تاليران Talleyrand:(٩٤) «يا أولادي، السياسي المحنَّك غالبًا ما يكون كومة قاذورات في جراب من حرير!».

– والوجود الفلسطيني الكثيف...؟

– الوجود الكثيف! لا أحب هذا التعبير ولو كانت الصحف والمجلات درجت على استعماله... الوجود الفلسطيني بنظري لا يشكِّل بيت الداء، إنما صراع الأنظمة عبر القضية الفلسطينية! هنا المصيبة. نعم، إنها مصيبة ابتلينا بها نحن والفلسطينيون على السواء. لكنني أتساءل: ألم يكن بالإمكان أن نتوقّى المرض قبل الوقوع فيه؟ وبعد الوقوع ألم يكن بالإمكان معالجة الداء بالعقاقير التقليدية بدلاً من جرّ المريض من غرفة عملية إلى غرفة عملية؟ أيجوز أن نكون ليبراليين إلى هذا الحد؟ أيجوز التماس الشفاء من خلال المجازر الأهلية وانهيار الدولة برمّتها؟ لا أدري ولا أريد أن أدري، لكن الطريقة التي انتقاها دكاترتنا ذكّرتني البيت القائل:

«إذا استغنيت عن داء بداء
فأقتلُ ما أضرّك ما شفاك!»

إني أحلم، يا بني، إني أحلم حينًا بعد حين، أحلم بعالم طردوا منه كل رجال السياسة، كل الرؤساء والملوك، كل الشيوخ، كل النواب وكل زعماء الأحزاب... أحلم بعالم يدير شؤونه مجلس بلدية واحد تخرَّج أعضاؤه من بستان ابيقوروس وقرروا إنقاذ البشرية نهائيًا من الخوف والعذاب... أحلم بسماء لبنان وبصفاء زرقتها... أحلم بكلمة «بو كلاب» وهو يصرخ بوجه السياسيين: «حلّوا عن سمايي!»

*

زلازل وحروب كثيرة نكبت الدامور الباسلة دون أن تنال من حيويتها ومن طاقتها على تجاوز المحنة، دون أن تشتت شمل أبنائها وتفرّق قلوبهم وتبلبل ألسنتهم كما فعلت العصبيات السياسية بعد الاستقلال. نمت الدامور وأخذت تزدهر بسرعة فائقة بعد أن

٩٤) تاليران هو صاحب القول المأثور: «لقد أعطى الله الكلام للإنسان لكي يفوه بغير ما يضمر».

اجتازت نكبة الحرير ومحنة حرب ١٩٤١، تضاعف فيها عدد البيوت والمتاجر وتضاعف عدد السكان حتى أصبح سنة ١٩٧٥ يناهز العشرين ألفًا[٩٥] أسعار المنتجات الزراعية ارتفعت تدريجيًا فانتعش المزارع وتحسنت أسعار الأرض كما تحسنت أجور اليد العاملة فعمّ الرخاء وقلّ عدد الذين لا يملكون سيارة خاصة. الفروقات المعيشية ما بين طبقة البورجوازيين الكبار والصغار وطبقة البرولتاريين أخذت تتقلّص شيئًا فشيئًا وصارت وسائل الرفاهية بمتناول الجميع. إلا أنّ هذا النمو السريع أحدث تغييرًا هامًا في بنية المجتمع وأسفر عن نتائج خطيرة يمكن تلخيصها كما يلي:

١) إضعاف شعور الإنتماء إلى الضيعة:

إن تكاثر عدد السكان جعل مشاركة الفرد لجميع أهالي بلدته في أفراحهم وأتراحهم (كما كانت الحالة في القديم) جعلها شيئًا صعبًا إن لم نقل مستحيلاً. لا بل أصبح عدد من السكان لا يعرفون بعضهم البعض، فانهمك كل شخص بحياته الخاصة وعمله الخاص وتراخت الصلة التي كانت تشدّه إلى جماعته وضيعته. أضف إلى ذلك قرب المسافة من العاصمة وسهولة المواصلات معها، ما جعل من الدامور شبه ضاحية من ضواحي بيروت الكبرى. وهكذا بدأت الدامور تفقد تدريجيًا طابعها الداموري المميَّز وبدأ يضعف شعور أهلها بأنهم يؤلفون عائلة كبيرة واحدة مصير أبنائها كلهم منوط بحكمة كبارها.

٢) تطوّر عقلية الشبان:

في عصر الذرّة والمغامرات الكونية ينزع المراهقون إلى التحرر باكرًا من وصاية ربّ العائلة وحمايته ويرفضون التقيد آليًا بواجب الاحترام نحو الأكبر سنًّا فيستخفون بنصائحهم ويعتبرون أمثالهم وحكمهم ومعاييرهم الأخلاقية مدرسة عتيقة أكل الدهر عليها وشرب. وبقدر ما انتشر العلم وكثر حملة الشهادات العالية زاد طموح الشبان وقلقهم. في الماضي كان ابن المزارع يعمل مزارعًا وابن النجار نجارًا وهكذا دواليك. أما اليوم فلم يعد أولاد الطبقة العاملة يستحسنون مهنة ابائهم وبقدر ما نشطت الصناعات قاذفة إلى الأسواق شتّى أنواع السلع ووسائل الترفيه نمت عند الشبان شهوة الأخذ واستعجال الزمن والمبادرة إلى التمتع بمباهج الحياة العصرية دون إبطاء ودون كبير عناء.

---

٩٥) الأرقام تقريبية نعطيها بكل تحفظ.

وقد ساهمت السينما والتلفزيون مساهمة هائلة في دعوة الأجيال الطالعة إلى نبذ القناعات التقليدية وانتزاع حقّها بخيرات المجتمع مهما ساءت الوسيلة. فتفشّت أعمال السلب والسطو والخطف.

٣) انتشار الأحزاب السياسية:

أدرك السياسيون الفائدة العظمى التي يستطيعون أن يجنوها من احتواء الشبان واستخدام ديناميتهم الجيّاشة لترسيخ قواعدهم الشعبية وتحقيق أغراضهم. فبثوا الدعايات ورفعوا الشعارات التي من شأنها أن تستغوي الشبيبة وتثير حماسها وكثيرًا ما اتّخذوا دعاة لأحزابهم في الأوساط الطلابية فريقًا من مديري المدارس وأساتذتها فأقبل الجيل الطالع على الانخراط في المنظمات على اختلاف أهدافها. فالمراهقون والشبان يجدون في انضمامهم إلى الأحزاب قضاء حاجة مادية وحاجة عاطفية: مادية، لأن الحزب بكل ما له من ثقل سياسي واجتماعي يساعد المنتمين مساعدة فعّالة على شقّ طريقهم في الحياة. أما على الصعيد العاطفي فإن شخصية الشاب أو المراهق وهي عادة شخصية حائرة، مائجة، سريعة الانفعال، تجد هذه الشخصية في الانتماء الحزبي عامل انفتاح وانشراح وطمأنينة لم تعد تجده في جوّ العائلة العصرية. فالانتماء الحزبي يتيح للمنتمين تجاوز الإطار العائلي أو الإقليمي الضيق ويردم الحفرة الفاصلة بين الطبقات ويضمّ الفرد إلى جماعة كبيرة أعضاؤها كلهم يؤمنون إيمانه وينهجون نهجه ويعضدونه في الشدائد. الأكثرية من شباب اليوم باتت ترفض أن تعيش «بذاتها ولذاتها» فهي بحاجة إلى تحقيق ذاتها عبر شخص آخر أو عبر جمعية أو منظمة...

انتشرت الأحزاب السياسية على مختلف ألوانها في أوساط الشبيبة الدامورية في الستينات وكان انتشارها أسرع وأشمل بين أبناء الأحياء الشعبية. ومما يدعو إلى الاستغراب أن الأكثرية من الشبان الداموريين الموالين لليمين المحافظ ينتسبون إلى الطبقة الكادحة أو إلى البورجوازية الصغيرة بينما نرى عددًا من أولاد العائلات الثرية يستميلهم اليسار.

– صحيح. كيف تعلل هذا السلوك الذي يبدو مخالفًا لكل قواعد المنطق؟

– أعتقد أن لهذا السلوك سببين رئيسيين: الأول كون العصبية الطائفية التي تجذب الشبيبة نحو الأحزاب التي لها صبغة طائفية هي أعمق جذورًا وأسرع التهابًا في الأوساط الشعبية منها في فيلات الأغنياء أو عند رجال الفكر. الثاني هو أن الانتماء إلى

الأحزاب اليمينية يفك العقدة النفسية التي يعاني منها أبناء الطبقة الكادحة ويحررهم من مركّب النقص الطبقي إذ يضعهم بفضل التنظيم الحزبي على قدم المساواة مع أبناء الطبقة الثرية، بينما الانتماء إلى اليسار يزجّ بهم أعمق فأعمق في الصراع الطبقي.

– ألا تعتقد أن هناك سببًا ثالثًا؟

– ربما. وما هو؟

– هو أن الكادحين والبورجوازيين الصغار هم أشد حاجة إلى نفوذ اليمين في الدوائر وعند الشركات والمصارف ليؤمّن لهم وظيفة أو عملاً ما يقيهم شر العوز.

– أصبت. هذا أيضًا سبب وجيه. على كل حال ومهما كانت العوامل فحصيلة تطوّر المجتمع كانت نوعًا من سوء التفاهم والتباعد بين العقّال والجهّال وتفكك عرى التضامن بين الأهل والأصحاب. على عهد التوت كان كبار المالكين وأصحاب مصانع الحرير يؤلفون شبه مجلس عمدة للدامور وكان الكادحون يعملون في أرض هؤلاء العمدة أو في مصانعهم فيتقيدون بتوجيهاتهم ويأتمرون بأوامرهم واضعين مصلحة البلدة والمحافظة على حياتها وأمنها فوق كل اعتبار. أما وقد تغيَّرت الظروف وصارت فئة الموظفين والعمال والبورجوازيين الصغار تتلقى توجيهاتها من خارج الضيعة، من رؤساء الأحزاب ومن كبار السياسيين الذين تعيش في كنفهم، عندئذ انقلبت المقاييس وأصبح الولاء للحزب أو للزعيم عند كثير من الداموريين يحجب الولاء للدامور وفي الوقت الذي كنا فيه بأمسّ الحاجة إلى رص الصفوف والتنظيم الواعي الدقيق والتعقّل لتجنب أفظع وأشرس إعصار هبَّ على المنطقة...

– لماذا «التجنُّب»؟ لماذا لا تقول «المجابهة»؟

– ... لتجنب أو لمجابهة الإعصار (إذا فرضت علينا المجابهة) بإيمان واحد وعزيمة واحدة، بدلاً من ذلك، فاجأتنا الكارثة ونحن حائرون، مترددون، ينظر كل منا إلى الأحداث بمنظاره الخاص. في أحد الأديرة التي أضافتنا، قال لي راهب عمره يناهز الثمانين: «كيف عملتو لسلّمتو الدامور، ليش ما تسلحتو وصمدتو، لو كنت في الدامور، كنت بعت جبتي واشتريت بارودة».

– «كيف عملتو لسلّمتو الدامور؟»

– نعم هكذا بكل بساطة، البعض ينظر إلى سقوط الدامور بأنه «تسليم» وأن السبب

الرئيسي يعود في ذلك إلى «بخل» البورجوازيين الكبار وتوانيهم عن شراء الأسلحة بكمية وافرة.

– أرجوك أن توضح! أصحيح أن الدامور «سُلِّمَت»؟ أصحيح أن أغنياء الدامور «سلَّموها» بسبب بخلهم؟ هذا اتهام خطير، خطير جدًا...

*

لم يستطع الإجابة عن سؤالي. تلعثم لسانه. انتابه عارض رجفة أشد من المعتاد فتلعثم وهوى إلى الأرض. حملته إلى الفراش وقلت لحفيده أن يسرع ويخبر الأب الرئيس بأنّ حالة الشيخ تستوجب استدعاء الطبيب حالاً. بقيت لوحدي إلى جانبه خَجِلاً من عجزي. كنت أودّ أن تتحقق أمنية هذا الرجل المهجَّر، أمنيته الوحيدة والأخيرة وهي أن يدفن في تربة أجداده. الموت لم يعد له قيمة ولا وزن ولا رهبة... عشرات من الداموريين يموتون منفيين فيُدفنون هنا وهناك وهنالك وتربة أجدادهم محرَّمة عليهم وأرض الدامور محرّمة على أبنائها. وفيما أنا أفكر في هذه المأساة، رأيت المريض يشير بأصبعه نحو إحدى زوايا الغرفة حيث توجد صندوقة خشبية صغيرة. حملتها وأتيته بها فدفعها إلي وأومأ بأن أفتحها. ففتحتها فوجدت فيها قصاصات ورق، قصاصات تتحدث عن معركة الدامور كما روتها بعض الجرائد والمجلات. فهمت من إشاراته أنه يريد أن أحتفظ بها لأني سأجد فيها الجواب عن أسئلتي. جلست على طرف السرير وبدأت أقرأ... فأغمض عينيه وفجأة أخذ يتشنّج ويتلفظ بعبارات غير واضحة فهمت منها:

«فاغنر... أسراب الغربان فوق السنديانة... سفينة الأشباح... السفر باكرًا قبل طلوع الفجر... الشهداء يتكدسون في الأكياس على الرصيف... وأنا... والشهداء وأبنائي... ستمخر بنا إلى المصبّ، ومن هناك سأسبح... سأسبح...»

أخذ يهذي وهو يسبح بالفعل إنما يسبح في العرق البارد. العرق يتصبب من كل جسمه. ربما عرق النزاع. وإذا بحفيده الصغير يعود راكضًا، ملهوفًا وبصحبته راهبة. الأم ا.ن. تعتني بمرضى الدير. إنها أكثر من ممرضة، إنها نصف طبيب وفي بعض الأحيان طبيب ونصف. في جعبتها وصفات ناجعة يجهلها كثير من الأطباء. قصيرة، سمينة، لكنّها رشيقة، كتلة لحم ماوردي تنبعث منها نفحات الرأفة المسيحية بالمعذبين. حضورها، كلماتها المشجعة، رنين صوتها تجعل المريض يشعر بشيء من الطمأنينة وبأنه

لن يواجه أجله معزولاً، مُهمَلا. بادرتني بالقول: «استدعينا طبيب الدير لكني جئت لإجراء الإسعافات المستعجلة». وبعد أن فحصت «الضغط»، قالت: «ضغطه منخفض جدًا. سأحاول إسعاف القلب بإبرة أدرينالين وبتنشيقه الكافور». قلت: «هذه نتيجة إدمان الكحول» قالت: «طبعًا وهناك أيضًا إدمان اسوأ، إدمان الذكريات المفجعة».

انتعش الشيخ قليلاً بفضل إسعافات الأم ا.ن. ففتح عينيه وأخذ ينظر إلى ما حوله باستغراب، فدنوت منه وهمست في أذنه مداعبًا:

– عندما نعود إلى الدامور سأهديك غالون عرق شغل نجيب عيد ومن الخابية التي يعتّقها من أجل عرسه[٩٦].

وإذا بالابتسامة الكئيبة تعود فترتسم على وجهه الشاحب المبلل بالعرق، وإذا به يجيبني بصوت خافت:

– قليل في الجيب، يا بني، خير من كثير في الغيب.

نصحتني الأم بأن أكفّ عن إزعاجه وأتركه يخلد إلى الراحة والسكوت فتأبطت الصندوقة وغادرت الشيخ وهو لا يزال بين الموت والحياة.

---

٩٦) لا يزال بعض الداموريين يذكرون نكهة عرق المرحوم نجيب عيد والأبيات المطبوعة على الزجاجات:
«وَراحٍ مَـن حَـسـاهـا الـعُـمـرَ يُـذكَـرْ،
شَـذاهـا عـنبرٌ وَالـطـعـمُ كَـوثَـرْ...
ثـلاثَـتُـهـا تُـذكِّـرُكُـم نجيـبًـا
ومَـن جَـلَـبَ الصـفـا بـالصَفـو يُذكَـر».

معركة الدامور
١٩٧٦/١/١٩ - ٧٦/١/١٢

معرَكة الدامور، لماذا؟ ما هي المسببات والغايات؟ ولماذا لم تصمد الدامور كما صمدت بعض الجبهات التي تعرضت مثلها لهجمات ضارية؟

بدأ التراشق بالرصاص والقذائف بين الدامور وحارة الناعمه في أواخر أيار سنة ١٩٧٥. في تلك الفترة كانت المعركة قد احتدمت في بيروت بين المنظمات اليمينية من جهة والتحالف الفلسطيني اليساري من جهة أخرى فأسفرت عن سقوط عدد كبير من الضحايا: نحو ٢٥٠٠ قتيل وعدد كبير من الجرحى. في آخر «ويك-أند» من أيار فوجئت الدامور للمرة الأولى بقصف عشوائي بالصواريخ وأول ضحية سقطت نتيجة هذا القصف كان المرحوم أديب نصر. ضربته القذيفة على قارعة الطريق وهو ذاهب إلى دكانه. والضحية الثانية: المرحوم خليل توفيق القزي. ضربه الصاروخ وهو على البلكون يحتسي القهوة في منزل أحد أصحابه. لم يكن لدى ميليشيات الكتائب والأحرار في الدامور هذا النوع من السلاح فكانت ترد على الصواريخ بمدفع ب١٠ ودوشكا. ثم حدث قرب جسر الدامور اغتيال مرافق الرئيس شمعون المرحوم نعيم بردقان ولم تُكشف ملابسات هذا الحادث. ثم هدأت الحالة وعادت المواصلات بين الدامور وبيروت وصيدا إلى سابق عهدها. لكن الأعصاب بقيت متوترة وسعاة التفرقة كانوا أوفر حظًا من سعاة التفاهم. عادت المناوشات وعاد التراشق في شهري أيلول وتشرين الأول سنة ١٩٧٥، إنما معظم الأهالي في الدامور وفي الحارة كانوا يرغبون في المصالحة ويريدون السلام لكن زمام الأمور أفلت من أيديهم وبرز في الساحتين زمرة الحزبيين المتطرفين ودعاة المشاغبة وتجار السلاح ولا نستبعد أن يكون قد اندس بينهم عملاء مرتبطون بأجهزة تعمل في الخفاء لتسعير الفتنة.

أ: ما هي أهم الأحداث التي شهدها لبنان أثناء هذه الفترة[٩٧]؟

يمكن تلخيصها كما يلي:

١) على الصعيد السياسي: احتدم الجدل بين اليمين واليسار حول تعديل الدستور

---

٩٧) أي ما بين أيلول ١٩٧٥ واقتحام الدامور في ١٩٧٦/١/١٩.

وحول الدور المفروض في الجيش أن يلعبه تجاه الوضع الأمني المتدهور.

في ١٩-٩-٧٥ أرسلت سوريا وزير خارجيتها السيد عبد الحليم خدام في مسعى لتقريب وجهات النظر وقد حدث أثناء وجوده في لبنان التقارب بين الزعيمين الشوفيين: كمال جنبلاط وكميل شمعون على اثر إعادة ابن كمال جنبلاط سالمًا بعد اختطافه.

في ٩-١١-٧٥ أوفد قداسة البابا الكاردينال برتولي في مهمة استطلاعية وفي محاولة لتنقية الأجواء.

في ١٩-١١-٧٥ أوفدت الحكومة الفرنسية السيد كوف دومرفيل للغاية نفسها، ما حمل العامة على القول: «حيث فشل البابا، عسى أن تنجح الماما!»

في ٢٩-١١ أذيع نداء من الحكومة يحث اللبنانيين على المصالحة وعلى إعادة تعمير ما خُرِّب. ولاحظ المراقبون أن اليسار، بعد أن كان يعتبر الكتائب عدوه رقم ١ ويميل إلى مدّ جسر لجهة الأحرار، غيّر تكتيكه وبات يميل إلى التفاهم مع الكتائب وإلى مهاجمة الرئيس شمعون «وقبيلته»[٩٨].

في ١٧-١٢-٧٥ تكلم الرئيس فرنجيه بعد صمت طويل واتّهم اليسار الدولي والصهيونية بنسج المؤامرة التي أغرقت لبنان في الدم والدمار.

خلافًا لرأي الرئيس فرنجيه الذي حصر دوافع الأزمة باليسار والصهيونية أعلن العميد ريمون اده إلى وكالة الأنباء الفرنسية أن هناك خطة مرسومة لدفن الثورة الفلسطينية في لبنان ولتقسيم المنطقة وأن صاحب الخطة هو التحالف الأميركي الصهيوني. (٣١-١٢-٧٥ - وكالة الأنباء الفرنسية).

١٩-١٢-٧٥: لقاء بين الرئيس فرنجيه والجنرال شهابي.

٢٤-١٢-٧٥: الرئيس فرنجيه يعلن ارتياحه وامتنانه للوساطة السورية.

في هذه الفترة احتدمت الحرب الكلامية بين شمعون وجنبلاط وكرامي. الرئيس كرامي في تصريح متلفز، يقول: «ان كميل وكمال هما السبب في تدهور الحال، فهما يتفقان في منطقة ويختلفان في المنطق». والظاهر أن الرئيس شمعون والسيد جنبلاط كانا

٩٨) التعبير للرئيس كرامي في خطابه بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٧٥.

قد اتفقا عبر بعض الوسطاء على إبقاء منطقة الشوف وعاليه خارج النزاع المسلح... وقد كتبت مجلة «الحوادث» ان الرئيس كرامي، عندما سئل عن سر حملته على الرئيس شمعون أجاب: «كلاّس ما بيغبِّر على طحّان!»[٩٩].

١٨-١-٧٦: الرئيس كرامي يستقيل ثم يعود عن استقالته.

٢) على الصعيد العسكري:

في ٢-١٢-١٩٧٥ أحرقت على طريق الشام بالقرب من الكحاله شاحنة تحمل نُسَخًا من القرآن الكريم فتكاثرت حوادث الخطف والاغتيال ولم يبقَ من شك أن بعض الأجهزة تعمل في الخفاء لإضرام الفتنة كلما أوشكت نارها أن تنطفئ.

في ٦-١٢ السبت الأسود: على أثر وقوع ٥ كتائبيين في كمين على طريق بيت مري القديمة هاج أهل الضحايا ورفاقهم وطفقوا يحتجزون المارة على الهوية وينكلون بهم وحدث هجوم على المرفأ وعلى الأسواق التجارية وعلى مصلحة الكهرباء وقد صرح المرحوم وليم حاوي القائد العسكري الكتائبي لمجلة الحوادث: «إن مفتعلي هذه الفتنة ينتمون إلى نفس الفئات اليسارية المخربة التي كانت هي الأساس بافتعال كل الفتن السابقة من حين اغتيال المرحوم معروف سعد لغاية هذه الفتنة الأخيرة ومن الواضح أنها تعمَّدَت إفساد زيارة رئيس الكتائب إلى دمشق...»

في ٨-١٢-٧٥ اشتعلت حرب الفنادق والأبراج في المنطقة الممتدة من الستاركو إلى الهوليداي إن والتي كانت في أيدي الكتائب والمثلث القائم بين برج المر وفندق فينيسيا والسان جورج والتي كانت تسيطر عليها القوات المشتركة (مرابطون واشتراكيون). وكانت المحاولات لاقتحام الهوليداي إن قد فشلت وتحوّلت الحرب هناك إلى حرب مواقع.

في اليوم ذاته، أي في ٨-١٢ بدأت معركة حارة الغوارنة وانتهت في ١١-١٢ ظهرًا باقتحام كتائبي ناجح.

في ٢٧-١٢ سِبنَيه: طوّقتها قوات الأحرار من الحدث وهجَّرت سكانها ونسفت بيوتهم.

٩٩) مجلة الحوادث في ١٦/١/٧٦ (دبابيس).

وما أقبلت السنة الجديدة حتى أخذت شراسة المعارك تتصاعد بشكل رهيب. القوات اليمينية تحاصر ثم تقتحم ٣ معاقل للقوى الفلسطينية واليسارية: الكرنتينا والمسلخ ومخيم الضبيه(١٠٠). طرق المواصلات بين مخيَّم تل الزعتر وبيروت الغربية تقطع ويبدأ حصار المخيم التمويني. الجبهة الشرقية برمتها تشتعل. المعارك تندلع في حرج تابت وفي محور غاليري سمعان. التراشق يتصاعد بين عاليه والكحاله وكذلك بين بدادون والقماطيه. الحواجز الطيّارة تحوّل كل طرق لبنان إلى طريق جلجلة. من وراء الصخور، من وراء الأشجار، من تحت الجسور ينبري مسلحون مقنعون يخطفون وينكِّلون ويعذبون ويروّعون خدمة لبني قومهم وحبًّا بالسلب والنهب. المعلقون الأجانب في الصحف الأوروبية يجمعون على القول: إن شراسة الحرب الأهلية في لبنان ليس لها نظير بين الحروب. في هذا الجو الرهيب بدأت معركة الدامور.

ب: ما هي الأسباب التي أدَّت إلى فتح معركة الدامور؟

هناك أربعة أسباب رئيسية: فتح الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية – الرد على اقتحام مخيَّم الضبيه وحارة الغوارنة والكرنتينا وغيرها – تعديل مخطط التقسيم – نسف آخر أمل بالاستعانة بالجيش.

١) فتح الطريق:

من الشائع أن العامل الرئيسي في إشعال النقمة على الدامور هو قطع طريق صيدا بيروت واحتجاز بعض ركاب السيارات من قبل فئة دامورية معينة. فلنفحص هذا السبب بدون تحيُّز. لا شك أن قطع الطريق، ولاسيما طريق دولية رئيسية كطريق بيروت صيدا هو في ظروف عادية عمل يستنكره الجميع، لكن الظروف الشاذّة التي كانت تمر بها البلاد جعلت من قطع الطريق وسيلة للضغط على المراجع المعنية في سبيل إنقاذ المخطوفين. في كل أنحاء لبنان وفي قلب العاصمة، درجت العادة على قيام الحواجز وقطع الطرقات لأسباب وجيهة أحيانًا وأحيانًا تافهة. والحق يقال ان طريق الدامور لم تقطع إلا على أثر حوادث خطف تعرض لها بعض أبناء الدامور فكان أهل المخطوفين وأصدقاؤهم يسرعون ويقيمون الحواجز معتبرين أنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أرواح ذويهم وإرغام الفريق الآخر على إخلاء سبيلهم والظاهر أنّ بعض المراجع العليا في الدولة كانت

١٠٠) مخيَّم الضبيّه كان يؤوي زهاء ألف لاجئ أكثرهم من المسيحيين.

تشجعهم على هذا العمل لأنّ قوى الأمن أصبحت مشلولة، ولأن قطع الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية من شأنه إضعاف الجبهة الفلسطينية اليسارية. معظم أهالي الدامور كانوا ينزعجون من قطع المواصلات أكثر من غيرهم، فأصحاب البساتين لا يعود بمقدورهم تصريف منتجاتهم والتجار يقفلون متاجرهم والمنتزهات ينقطع عنها روادها ولكن ما العمل؟ في غياب الدولة أليس من واجب التكتلات الإقليمية أن تنظم الدفاع عن نفسها بجميع ما يتوفر لديها من الوسائل؟ وبالفعل كانت هذه الوسيلة أي قطع الطريق هي الوحيدة التي تؤدي أحيانًا إلى الهدف فيطلق سراح المخطوفين ويعاد فتح الطريق. من جهة أخرى لم يكن بإمكان التحالف اليساري الفلسطيني إبقاء طريق صيدا بيروت تحت رحمة القوى اليمينية. هذه الطريق هي حبل الوريد بالنسبة لحرب البيروتَين. انقطاعها يعزل بيروت الغربية ويمنع عنها الإمدادات الغذائية والعسكرية فكان لا بد لليسار من انتزاع السيطرة على هذا الشريان قبل أن يتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. في مقابلة أجرتها مجلة الحوادث مع المقدم مصطفى سعد الدين قائد منظمة الصاعقة العسكري في الجنوب وهو في المستشفى على أثر إصابته أثناء عملية اقتحام قصر الرئيس شمعون، سأله السيد سمير بساط: «لماذا قمتم باقتحام القصر؟» فأجاب: «لأن القصر كان حجر عثرة في الطريق الدولية من بيروت إلى الجنوب وكان لا بدَّ لمرور المواطنين بأمان من بيروت إلى الجنوب وبالعكس، من تحطيم قصر السعديات»(١٠١) إذن اقتحام الدامور والسعديات كان في نظر اليسار ضرورة عسكرية لتأمين الطريق.

٢) الردّ على عملية الضبيه والكرنتينا والمسلخ وغيرها...

تجاه السخط الإسلامي المتزايد كان لا بد لليسار من القيام بعملية ثأر مهمة لإقناع رجل الشارع بأنه بمقدور التحالف الفلسطيني اليساري أن يرد التحية، فجاء الرد بتطويق الدامور والجيه في الشوف وزحله في البقاع. ما أوحى إلى الرئيس الدكتور عبدالله اليافي قوله: «إن الشعب اللبناني يعيش حكاية القرد والقطتين... فلكي تتمّ المعادلة بين الطرفين أخذ القرد يأكل من جبنة بيت ملاّت وتل عباس ثم يتحوّل إلى القاع وداريا، ثم ينتقل إلى حي الغوارنة والكرنتينا ثم يتحول إلى الدامور...» ضربة على الشمال، ضربة على

١٠١) مجلة الحوادث تاريخ ٢٠/١/٧٦، صفحة ٣٩.

وما أقبلت السنة الجديدة حتى أخذت شراسة المعارك تتصاعد بشكل رهيب. القوات اليمينية تحاصر ثم تقتحم ٣ معاقل للقوى الفلسطينية واليسارية: الكرنتينا والمسلخ ومخيم الضبيه[١٠٠]. طرق المواصلات بين مخيَّم تل الزعتر وبيروت الغربية تقطع ويبدأ حصار المخيم التمويني. الجبهة الشرقية برمتها تشتعل. المعارك تندلع في حرج تابت وفي محور غاليري سمعان. التراشق يتصاعد بين عاليه والكحاله وكذلك بين بدادون والقماطيه. الحواجز الطيّارة تحوّل كل طرق لبنان إلى طريق جلجلة. من وراء الصخور، من وراء الأشجار، من تحت الجسور ينبري مسلحون مقنعون يخطفون وينكّلون ويعذبون ويروّعون خدمة لبني قومهم وحبًّا بالسلب والنهب. المعلقون الأجانب في الصحف الأوروبية يجمعون على القول: إن شراسة الحرب الأهلية في لبنان ليس لها نظير بين الحروب. في هذا الجو الرهيب بدأت معركة الدامور.

ب: ما هي الأسباب التي أدَّت إلى فتح معركة الدامور؟

هناك أربعة أسباب رئيسية: فتح الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية – الرد على اقتحام مخيَّم الضبيه وحارة الغوارنة والكرنتينا وغيرها – تعديل مخطط التقسيم – نسف آخر أمل بالاستعانة بالجيش.

١) فتح الطريق:

من الشائع أن العامل الرئيسي في إشعال النقمة على الدامور هو قطع طريق صيدا بيروت واحتجاز بعض ركاب السيارات من قبل فئة دامورية معينة. فلنفحص هذا السبب بدون تحيُّز. لا شك أن قطع الطريق، ولاسيما طريق دولية رئيسية كطريق بيروت صيدا هو في ظروف عادية عمل يستنكره الجميع، لكن الظروف الشاذّة التي كانت تمر بها البلاد جعلت من قطع الطريق وسيلة للضغط على المراجع المعنية في سبيل إنقاذ المخطوفين. في كل أنحاء لبنان وفي قلب العاصمة، درجت العادة على قيام الحواجز وقطع الطرقات لأسباب وجيهة أحيانًا وأحيانًا تافهة. والحق يقال ان طريق الدامور لم تقطع إلا على أثر حوادث خطف تعرض لها بعض أبناء الدامور فكان أهل المخطوفين وأصدقاؤهم يسرعون ويقيمون الحواجز معتبرين أنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ أرواح ذويهم وإرغام الفريق الآخر على إخلاء سبيلهم والظاهر أنّ بعض المراجع العليا في الدولة كانت

١٠٠) مخيَّم الضبيّه كان يؤوي زهاء ألف لاجئ أكثرهم من المسيحيين.

تشجعهم على هذا العمل لأنّ قوى الأمن أصبحت مشلولة، ولأن قطع الطريق بين الجنوب وبيروت الغربية من شأنه إضعاف الجبهة الفلسطينية اليسارية. معظم أهالي الدامور كانوا ينزعجون من قطع المواصلات أكثر من غيرهم، فأصحاب البساتين لا يعود بمقدورهم تصريف منتجاتهم والتجار يقفلون متاجرهم والمنتزهات ينقطع عنها روادها ولكن ما العمل؟ في غياب الدولة أليس من واجب التكتلات الإقليمية أن تنظم الدفاع عن نفسها بجميع ما يتوفر لديها من الوسائل؟ وبالفعل كانت هذه الوسيلة أي قطع الطريق هي الوحيدة التي تؤدي أحيانًا إلى الهدف فيطلق سراح المخطوفين ويعاد فتح الطريق. من جهة أخرى لم يكن بإمكان التحالف اليساري الفلسطيني إبقاء طريق صيدا بيروت تحت رحمة القوى اليمينية. هذه الطريق هي حبل الوريد بالنسبة لحرب البيروتَين. انقطاعها يعزل بيروت الغربية ويمنع عنها الإمدادات الغذائية والعسكرية فكان لا بد لليسار من انتزاع السيطرة على هذا الشريان قبل أن يتحول من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم. في مقابلة أجرتها مجلة الحوادث مع المقدم مصطفى سعد الدين قائد منظمة الصاعقة العسكري في الجنوب وهو في المستشفى على أثر إصابته أثناء عملية اقتحام قصر الرئيس شمعون، سأله السيد سمير بساط: «لماذا قمتم باقتحام القصر؟» فأجاب: «لأن القصر كان حجر عثرة في الطريق الدولية من بيروت إلى الجنوب وكان لا بدَّ لمرور المواطنين بأمان من بيروت إلى الجنوب وبالعكس، من تحطيم قصر السعديات»[١٠١] إذن اقتحام الدامور والسعديات كان في نظر اليسار ضرورة عسكرية لتأمين الطريق.

٢) الردّ على عملية الضبيه والكرنتينا والمسلخ وغيرها...

تجاه السخط الإسلامي المتزايد كان لا بد لليسار من القيام بعملية ثأر مهمة لإقناع رجل الشارع بأنه بمقدور التحالف الفلسطيني اليساري أن يرد التحية، فجاء الرد بتطويق الدامور والجيه في الشوف وزحله في البقاع. ما أوحى إلى الرئيس الدكتور عبدالله اليافي قوله: «إن الشعب اللبناني يعيش حكاية القرد والقطتين... فلكي تتمّ المعادلة بين الطرفين أخذ القرد يأكل من جبنة بيت ملّات وتل عباس ثم يتحوّل إلى القاع وداريا، ثم ينتقل إلى حي الغوارنة والكرنتينا ثم يتحول إلى الدامور...» ضربة على الشمال، ضربة على

١٠١) مجلة الحوادث تاريخ ٧٦/١/٢٠، صفحة ٣٩.

اليمين... من واجب القرد أن يقضم الجبنة من طرفيها إرضاءً للعدالة... لا سبيل للتوقف... «إن أنتما رضيتما، فالعدل لا يرضى!»

٣) تعديل جغرافية التقسيم:

في افتتاحية جريدة السفير الصادرة بتاريخ ٢٦-١-١٩٧٦، أي بعد اقتحام الدامور بأسبوع، كتب جوزف سماحه: «معركة الدامور جاءت لتضع حدًا للمشروع الذي بدا أن المحور الماروني المتصلب سائر في تنفيذه: مشروع التقسيم، إذ انها أظهرت أن القوى الوطنية بوسعها أن تسيطر على نصف جبل لبنان على أقل تعديل... (جاءت) لتؤكد لأصحاب المشاريع اليمينية الانفصالية أن حلمهم بدولة مسيحية في الجبل مستحيل وأن حدود هذه الدولة لن تكون حدود المتصرفية ولن تكون كذلك حدود القائمقامية المسيحية بنظام القائمقاميتين...»

٤) نسف آخر أمل بالجيش:

ويتابع صاحب افتتاحية السفير تحليله لأهداف المعركة قائلاً: «وقد جاءت معركة الدامور لتحسم إمكانية المضي في استخدام الجيش بهذه الوجهة (أي لإخضاع البلد لحكم اليمين)، كما جاء الانحلال والتفكك في أجهزة الدولة وتحول مؤسساتها إلى أماكن معرضة للنهب والسرقة ليسقط آخر الأقنعة عن هيبة السلطة...»

ويخلص صاحب الافتتاحية إلى القول بأنّ معركة الدامور «لعبت الدور الأساسي في حسم الحرب الأهلية ودفعها نحو هذا المخرج... وان أهمية النتائج تكاد تدفع المرء إلى التسامح مع التجاوزات التي شابت هذه المعركة».

ما هي التجاوزات التي يلمح إليها الكاتب وما هو معنى كلمة «تجاوزات» في قاموسه. سنترك إلى الشهود الذين عاشوا معركة الدامور واقتحام البلدة مهمَّة الجواب عن هذا السؤال. لكننا نسجل لصاحب المقال عبارة «تكاد تدفع»... «تكاد تدفع إلى التسامح» وقوله أيضًا: «كان بالإمكان الوصول إلى النتيجة إياها مع التقليل من حجم التجاوزات التي حصلت». من خلال هذه العبارات نشعر بأن ضمير «الانتليجنتسيا» اليسارية لم يكن مرتاحًا للجرائم التي ارتكبت أثناء اقتحام الدامور: من إحراق المنازل بدون أدنى تمييز إلى قتل الأبرياء بدون رحمة إلى تدنيس المقابر... لكن الاعتبارات الأخلاقية شيء ومقتضيات المعركة شيء آخر. إن الفظاعات التي رافقت اقتحام الدامور

والتي يترجمها صاحب الافتتاحية بكلمة «تجاوزات» لم ترتكب فقط بدافع الثأر إنما تنفيذًا لمخطط هدفه نشر هيبة الحِلف الفلسطيني اليساري بالترويع وجعل سائر القرى المسيحية المعزولة في الشوف وفي الجنوب ترتدع عن المقاومة وتسلِّم سلاحها راضخة لمشيئة الحلف. وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لبعض القرى[١٠٢].

جيم: كيف تطورت المعركة ولماذا انهار الدفاع؟

بدأ قصف الدامور بالهواوين ابتداء من ليل ١٢-١-١٩٧٦ وأذاع بيان صادر عن القيادة المركزية للنمور الأحرار أن مصادر القصف تتوزّع كما يلي: «مركز هاون من بعورتا، مركز هاون من قبر حبنجر، مركز هاون من ملتقى النهرين، مركز هاون من جهة حارة الناعمه»[١٠٣].

من الواضح أن وضع المدافعين عن الدامور في هذه المعركة يختلف تمامًا عما كان عليه على أيام الجنرال دنز. فأثناء حرب ١٩٤١ كانت التلال المجاورة كلها تحت سيطرة جيش الدفاع بينما أصبحت كلها الآن بين أيدي المهاجمين وقد نصبوا عليها قواعد صاروخية ومدافع هاون من عيار ٨٢ و١٢٠. جبهة الجيه-الدامور محاصرة من كل الجهات إلا من البحر وبإمكان المتسللين أن يتغلغلوا ليلاً بين بساتين الموز والليمون وأن يهاجموا أيضًا من جهة البحر. الدفاع خطه طويل ومترجرج والمدافعون عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين بينما حشود المهاجمين تقدّر بأكثر من ألف.

مصادر قوى الأمن قدّرت عدد المقاتلين القادمين فقط من جهة دميت وكفرحيم بألف وهم يحملون أسلحة ثقيلة وكتبت جريدة الأنوار في عددها الصادر بتاريخ ١٤-١-١٩٧٦ استنادًا إلى مصادر قوى الأمن «ان الدامور شاهدت منذ صباح أمس وحتى المساء عمليات عسكرية عنيفة فقد هوجمت من التلال المحيطة بها بمدافع الهاون والرشاشات الثقيلة وأضافت المصادر أن العمليات بدأت بعد إطلاق عدة رشقات من رشاش ثقيل من مفرق المغيري – ملتقى النهرين».

في ١٣-١-١٩٧٦ هوجمت المشرف واستشهد فيها سيمون مهنا من النمور الأحرار كما خُطِف وقُتل كل من جرجس معوض وجرجس القزي، أما المهاجمون

---

١٠٢) مثل الدبيه والجيّه وغيرهما.
١٠٣) بكل تحفظ.

فقتل منهم اثنان ثم انسحب المسلحون من قرية المشرف إلى التلال المجاورة بعد أن تأكدوا أنه لم يبقَ فيها سوى العناصر الموالية لهم وهكذا أحكم طوق الحصار حول الدامور.

من المعروف أن كل مركز مهما كان محصّنًا إذا طوقه العدو وقطع عنه الماء وسائر الإمدادات وصب عليه نيران المدافع الثقيلة من كل صوب، هذا المركز يصبح عسكريًا بحكم الساقط مهما استبسل المدافعون. هذا ما حصل لمخيم تل الزعتر بالذات مع العلم بأنَّ الفوارق شاسعة ما بين استعدادات المخيم وتحصيناته وإمكانات الدامور. الدامور لم تكن مستعدة لمثل هذه المعركة. المقاتلون المدرّبون فيها عددهم ضئيل وهم منقسمون إلى ثلاث فرق: كتائب، نمور أحرار، لجنة دامورية وهم يفتقرون إلى التنسيق الدقيق وإلى المعدات والذخيرة. المدافع التي يردون بها على قصف العدو المتواصل ثلاثة فقط: مدفع هاون ٨٢ ومدفع ١٢٠ وب١٠ بالإضافة إلى دوشكا ورشاشين ٥٠٠. المقاتلون معنوياتهم عالية لكنهم مرهقون وغائصون بين جماعات لا تشاطرهم حماسهم. الأكثرية الصامتة تعاني وتتجلّد وتتساءل: لماذا فرضت علينا هذه المعركة؟ لا ثأر لنا على أحد ولا أحد له ثأر علينا. سكان الدامور المقيمون وعددهم يتراوح بين ١٤ ألف و١٨ ألف كانوا يعيشون مع جيرانهم بوئام وسلام منذ أمد بعيد. لم يقتنوا الأسلحة الفتّاكة و لم يتدربوا على فنون الحرب، كانوا واثقين بأنّ هناك دولة لها أجهزة أمنية كفيلة بحماية أرواح المواطنين، ولما استيقظوا وأدركوا الحقيقة، كان قد فاتهم القطار.

بعد ان أحكموا طوق الحصار قام الفدائيون وحلفاؤهم بعدة محاولات اقتحام صدّت جميعها وتكبد الفريقان من جرّائها خسائر بالأرواح. المحاولة الأولى استهدفت الحي الشمالي المحاذي لحارة الناعمه والملقب «حارة الروس» حيث أحرقت البيوت واستشهد عدد من السكان منهم أفراد عائلة واحدة بكاملها وعددهم سبعة[١٠٤]. ثم تكرر الهجوم من ناحية الشرق (طريق بعورته) لكن المدافعين عن البلدة تمكنوا من صد الهجومين وكبدوا المهاجمين خسائر في الأرواح كما أحرقوا لهم سيارتي جيب لكن الداموريين أيضًا استشهد منهم بعض المقاتلين من العناصر المعوّل على بسالتها وتفانيها مثل ميشال حبيب أبو مرعي واسكندر أبو فيصل وغيرهم[١٠٥] ولم يكن بإمكانهم أن

١٠٤) حبيب الياس كنعان، سعيد حبيب كنعان وزوجته سعدى وأولادهم الأربعة.

١٠٥) هذه أسماء المحاربين الذين استشهدوا في معركة الدفاع عن الدامور، نقلاً عن «صدى الشوف» عدد ١٦/٩/١٩٧٦: ميشال حبيب أبو مرعي، اسكندر أبو فيصل، خليل توفيق القزي، شربل الياس القزي،

يسدوا الثغرات الحاصلة في صفوفهم نظرًا لقلة عدد المدربين. ازاء هذا الوضع المتدهور وبعد المراجعات الملحة والتوسلات الحارة تحركت أوساط بعبدا وأرسلت حفنة من مغاوير الجيش عددهم حوالى الستين بقيادة ضابط من آل الضناوي لنجدة الدامور. لكن الدور الذي لعبه هؤلاء المغاوير كان مدعاة للشكوك، فقد اتهمهم الكثيرون بأنهم هم «الذين فتحوا الثغرة الخطيرة في الجهاز الدفاعي»[١٠٦] وحثوا الداموريين على الهريبة.

أما المصادر الرسمية فتقول انهم حاولوا إقامة خطَّي دفاع لجهة الشرق (مراح الدعسه – طريق بعورته) لكن الخط الأول ما لبث أن خُرق فلاذ المغاوير بالهرب... والواقع أنه لم يسقط لهم ولا شهيد أثناء الهجوم الحاسم على البلدة و لم يُصَب أحد منهم بأذى يذكر.

لماذا لم تصمد الدامور كما صمدت الكحالة أو جزين مثلاً؟

صحيفة «صدى الدامور» تولت الجواب عن هذا السؤال كما يلي[١٠٧]:

هناك عدة عوامل عززت صمود تلك المواقع أهمها:

دعم الجيش السوري لبعضها (جزين، القبيات).

هبوب القوات اللبنانية إلى نجدتها بأعداد كثيفة (عكار).

تأمين حماية ظهرها ووصول الإمدادات إليها (دير الأحمر).

وجود الجيش اللبناني بالقرب منها (زحله – الكحاله).

... بينما الدامور تُركت تنازع لوحدها...

يبقى السؤال الكبير مطروحًا: لماذا تركت الدامور؟ لماذا «تركت تنازع لوحدها» وكلهم يعرفون ما لها من أهمية استراتيجية وسياسية في الشوف؟ هل التخلي عن إمداد الدامور بما يكفي لتعزيز صمودها كان أيضًا نتيجة مؤامرة؟ لماذا لم تُبحَث المقايضة بين

طوني أيوب عيد، نصر طانوس نصر، جوزف الياس أبو شقرا، غازي وديع الغريب، ميشال جرجي الغريب، طانوس ديب شلهوب، الياس يوسف البستاني، بسام حبيب أبو حيدر، مارون توفيق الأسمر، ابراهيم الياس أبو مرعي، طوني جريس القزي، ميلاد سليم الأسمر، جورج نخله أسعد. أما عدد الضحايا من المدنيين فيناهز المائة والخمسين.

١٠٦) صدى الشوف، ١٦/٩/١٩٧٦.

١٠٧) صدى الدامور، ١٦/٩/١٩٧٦.

فك الحصار التمويني عن تل الزعتر مقابل فك الحصار عن الدامور – الجيه؟ هل كانت المعركة واحدة على الصعيد اللبناني أم كان كل إقليم يقوم بمعركته على حدة؟ ما هي مسؤولية القيادات المسيحية في معركة الدامور الخاسرة؟ هل إن بعض القيادات ثارت هي أيضًا على الدامور وسلّمتها للتدمير والتهجير كما يزعم المشكّكون؟ كأننا خضعنا لمخططات كيسنجر ينفّذها بعض أمراء الحرب وواجهنا أسئلة عويصة نترك للتاريخ الجواب عنها.

اقتحام الدامور
(١٩/١/١٩٧٦)
يرويه شهود عيان

«ان كنت رقيق القلب، فإياك أن تشتغل بالسياسة».

(ماكيافيل)

(لقد آثرنا تدوين هذه الشهادات كما أدلى بها أصحابها باللغة الدارجة لنضع أمام القارئ صورة صحيحة حيَّة عن الأحداث التي عاشها كل شاهد).

سليم ك.:

بيتي في حارة الروس جنب بيت الدكتور ب. أنا أرمل وعندي ولدان. الكبير عمره ١٨ سنة، بعدني ما بعرف إن كان حيّ أو ميت. إبني الثاني عمره ١٤. انصاب إصابة بسيطة. قِدِر يركض ويهرب. أنا تقوست بكتفي وصار الدم يفوّر مني. التقحت على الأرض وعملت حالي ميت. وصلوا لي وصاروا يقلبوني ويلكشوني وأنا مستموت. قال الفدائي لرفيقه: ارتحنا منه، ما بيحرز رصاصه ثانيه، شِيلو الساعة من إيدو. صرت خايف هو وعمبيشيل الساعة يحس على نبضي عمبيضرب. اللّه ستر. أخذ الساعة ومد إيدو على عبي وسحب جزدان فيه ثلاثماية ليرة. بقيت مستموت حتى فلّوا. لما صارت الدنيا ليل، زحفت إلى بيت الدكتور ب. والدم عمبينزف من كتفي. سمعت جارتنا عمبتعن: دخلك، حملني من هون قبل ما موت! قتلوا لي زوجي واولادي الأربعة... قلت لها: أنا مش قادر أحمل نفسي كيف بدي احملك. لما وصلت إلى بيت الدكتور ربطوا لي جرحي ورموني في مكنه رايحه للسعديات حملوني بالهليكوبتر وأخذوني على اليرزه. دخلوني المستشفى وأعطوني دم حالاً. حارة الروس فظّعوا فيها أكثر من كل الدامور. ليش؟ ما بعرف... ما فيها كتايب إلا خمسة، ستة. حملوا السلاح ليدافعوا عن أرضهم وعرضهم... لما صار الاقتحام هربوا وخلصوا. البقية شو ذنبهم؟

ليزا م.:

أنا عجوز. معي نشاف بالشرايين وألف ضربه سخنه. إبني جورج قال لي: يا ماما، أحسن ننزل نحتمي في كرخانة العين. المحل بعيد عن الضرب والحيطان سميكه، القنابل ما بتخرقها. دركبت حالي ورحت معه. إبني البكر طانيوس ما بعرف مصيره. قالوا لي

انه راح إلى مزرعة النهر مع رفاقه واختبأوا في مغارة. لما وصلوا الفدائيه، نقّوه يا ولدي من بين ثلاثين شاب. قالوا له: انت يا بو لحية، إمشي معنا. ظنوا أنه محارب لأنّه مربّي لحيته. ما بعرف شو عملوا فيه. هو مقتول هو مخطوف؟ إبني جورج خلّص بأعجوبه. ركض صوب البحر وارتمى بالموج. جورج سبِّيح بيعجبك. أنا بقيت مع النسوان في كرخانة العين. في ليلة شفنا القصب جنب نهر «بو دمعه» عميحترق. يا رب لايش القصب عميحترق؟ طلعنا لنشوف شو السيره. وجدنا الفدائيه محيطين بالكرخانه من كل الجهات. رفقاتي حاولوا يركضوا. أنا أرجلي ما حملتني. اتكأت على شجرة ليمون. قالوا لنا الفدائيه: لا تخافوا ولا تهربوا، نحن جئنا لنخلصكم. طلعونا على الطريق ومشينا لوصلنا إلى خيمة البدادوني. هناك قدموا لنا مأكولات. خفنا ليكونوا داسّين فيها السم. ما أكلنا. قالوا لنا: لايش خايفين وصاروا ياكلوا قدامنا. تجرعنا وأكلنا. وكان معنا امرأة من مغدوشه. طلبت ليرجعوها إلى بلدها. قال لها رئيس الفوج: بتعرفي مختار مغدوشه؟ قالت: طبعًا كيف ما بعرف ابن بلدي؟ قال: المختار من أصحابي سأرسلكم كلكم لعنده وتبقون هناك بأمان. رحنا لمغدوشه ومنها لدير المخلص. في الدير ضافونا ضيافة حسنة. كثّر اللّه خيرهم! لكن فكري دائمًا عند أولادي. بسأل، بسأل. لا علم ولا خبر. يا حسرتي على الفقير. الاغنيا بيعرفوا كيف بيخلصوا بريشهم.

جورج ك.:

كنت مساعد لفرع الصليب الأحمر في الدامور. بعد أول هجوم على حارة الروس، رحنا لنلم الموتى. رأيت في بيت قريب من الدكتور ب. طفلين وامرأتين رؤوسهم مضروبه بالفرّاعه. كنا ننقل الجرحى إلى السعديات ونحملهم بالهليكوبتر أو بالشخاتير لجهة جونيه. قبل اقتحام الدامور بليلة، رحت بصحبة ف.ج. لمقابلة الرئيس شمعون في قصر السعديات وجدناه يرتدي ثياب صيد. قلنا له: ألم تسمع، يا فخامة الرئيس، صريخ الناس بالدامور. الناس بحالة ذعر وهستيريا. البلد بدأت تحترق. بكرا بتحترق كلها. بوسعك أن تتصل بالرئيس فرنجيه أو بياسر عرفات ليخلصوا الدامور من الكارثة.

أجاب: أنا وأنتم بنفس الوضع. أو منعيش معًا أو منموت معًا. الاستقلال بحاجة إلى دم وشهداء. الشباب لازم يذهبوا إلى المتاريس وطريق الدامور لازم تبقى مقطوعة.

أخذ مني الفيلم الذي صورت فيه الأطفال والنساء المشقفه بالفرّاعه. وقال لرفيقي: تعال معي لسمعك شو راح قول لبعبدا... أخذ التلفون وصار يحكي بلهجة الغضب ويصرخ: السعديات والدامور عمتحترق، يا...! إبعث جيش! إبعث طيارات!

قلنا له: لن يلبوك في بعبدا. اتصل بياسر عرفات.

قال: غير معقول!

قلنا: سكان الدامور في حالة انهيار. لم يبقَ من المقاتلين إلا سبعه، ثمانيه... شو بدهم يدافعوا ليدافعوا؟

قال: إذهبوا إلى الموجودين في مار مخايل وقولوا لهم أن يأتوا إلى هنا...

لم نلحق نقطع جسر الدامور حتى كانوا الفدائيه سبقونا. فهربنا إلى الدبيّه.

سعيد وأسعد ع.:

بيتنا في الجهة الشرقية. سمعنا صوت المغاوير بيصرخوا: «هْربوا! هْربوا!»

إلى أين نهرب؟ ما عندنا سيارة وبيتنا بعيد. اختبأنا في قن الدجاج وبقينا يومين لا نأكل ولا نشرب ولا نتحرك. لما الفدائيه اكتشفوا مخبأنا، أسعفونا وبعتونا إلى كفرمتى. لكن بيتنا احترق. وضعنا فيه كل جنى حياتنا. نحن والفلسطينيه كنا مثل الدهنه على الفطيره. كانوا يجوا من المخيمات يشتغلوا في الدامور. وفي منهم سكنوا الدامور وعمَّروا وفتحوا متاجر وصار لهم ملك. لايش عملوا فينا هيك؟ بيقولوا: الدوامري قطعوا علينا الطريق. نحنا بزماننا ما قطعنا طريق ولا تعدينا على أحد. اللي كانوا ينزلوا ويقطعوا الطريق معروفون من هم. بيحرقوا بلد عن بكرة أبيها وبيقتلوا الأبرياء ليقتصوا من كم واحد. بيهجّروا بلد طويله عريضه. فشة خلق؟ هالشي ما بيقطع العقل. حريق الدامور وتهجير سكانها في وراه سر.

مرتا س.:

اللي ما شاف شاطئ السعديات يوم الهشله ما شاف شي في حياته. العالم تتراكض بالمئات وترتمي على السنابك. الرجال والنسوان بثياب النوم حاملين أطفالهم ملفوفين بحرامات. ويا ليت خلوا لنا الحرامات. صرخوا: السنابك ما بتحمل حرامات. ارموهم

على الشاطئ وانجوا بأرواحكم! شفت عمتك س. بقميص النوم، حافيه عمتبرم على ابنها، صارت تبكي وتقول: «شفتي، يا مرتا، شو هالتعتير!»

رحلوا الصغار بالأول. حملوهم بالسنابك وطلعوهم على بابور رايح صوب الكسليك. لما وصلنا إلى ميناء جونيه، شفناهم عمبيرفعوا كل طفل وطفلة وينادوا: «لمن هالولد؟» اللي أهله بيتعرفوا عليه، يأخذوه معهم. واللي أهلهم ما قدروا لحقوهم، جمعوهم في مدرسة. نحن خاطيين، لكن هالأطفال شو ذنبهم؟ لعنة اللّه على اللي شردوهم ويتموهم! لعنة اللّه على اللي كانوا السبب!

جورج ن.:

أنا وعائلتي ٧ أشخاص لجأنا إلى الدلهميه. بتنا ليله في نادي الدلهميه. في اليوم الثاني قال لنا المسؤول: «ما بيجوز تبقوا هون اليوم بيوصل الدور لنا. اهربوا». نزلنا صوب السعديات شفنا الناس مثل النمل. الريح بيزمر والموج قناطير. الزوارق بتحاول تقترب من الشط لتنقل العالم. لكن شو بدها تساع لتساع. الرصاص عمبينهمر عليها من التلال. احترنا شو بدنا نعمل. شفنا بوسطه خضرا متجهه صوب صيدا وعمبتلم ركاب. ما في دقيقه حتى صرنا نحو ماية راكب. إلى جنب السائق وقف مسلح من الحزب الاشتراكي يتولى الحراسه، وكل ما وقفونا على حاجز يحكي مع الشباب ليخلونا نمر. لما وصلنا على مفرق برجا طلع أحد المسلحين وبيده ار.ب.ج. صار يتهددنا ويقول: «لو ما كنا أوادم، كنت هالساعة بقتلكم كلكم! لكن الحق مش عليكم. الحق على الذين كانوا السبب!» وصار يكيل الشتائم لزعماء اليمين ونحن نطيب له. شو منعمل؟ بدنا نخلص بجلدنا. لما وصلنا لصيدا طلب السائق أجره من كل راكب خمس ليرات. صاروا الركاب يدفعوا وينزلوا. ما نزل نصفهم حتى عرف شباب صيدا أنه عمبياخد من كل راكب خمس ليرات. هجموا على البوسطه وقالوا للسائق: «حرام عليك. جماعة هاشلين منكوبين. عيب علينا نظلمهم»! وقالوا لنا: «انزلوا ما بقى تدفعوا. اللي أخذه من رفاقكم يكفيه». نزلنا دون أن ندفع شيء.

سوسان م.:

بعد ليلة رعب كثرت فيها الانفجارات، ما صدّقت أيمتى بيطلع الضو لأهرب.

سألت جارنا وديع: أي طريق سالكه؟ قال: لا تخافي، خليك في بيتك، هجموا علينا مرتين ورديناهم، مهما عملوا، مش راح نخليهم يحتلوا الدامور. ما مرت بضع ساعات على هذا الحديث إلا شفت الفدائيه عمبيفزفزوا حوالى بيتنا. ركضت واختبأت في القبو، في خزّان ماء فاضي. احترق البيت وهبطت تكنة القرميد وأنا في المخبأ. لما خفّت الحركه، طلعت ومشيت صوب الكنيسة. مسكني فدائي هيئتو لطيف. قال لي: «ما تخافي نحنا مش كلنا مثل بعضنا. تعالي معي. أنا أحميك». وفيما هو يقول لي ذلك، اقترب رفيقه والنار عمتتطاير من عينيه وصار يهددني بالقتل. فمنعه وأخذني إلى دار ا.هـ. حيث كانوا يجمعون الناس الباقيين في البلد. دخل اثنان استشبهنا بهم. صاروا يخلعوا الأبواب ويأخذوا من الخزانات ويحملوها بأكياس. ثم دخلت ابنة... وصارت تنادي ست الدار الغائبة وتهزأ بها: «يا ست الدار، أين أنت، يا ست ن. أين الخدم والحشم؟ أين البيك؟ بعد ما خلص من الحمَّام!» تقول ذلك وتضحك. كنت راح ألطشها كلمتين، لكن تمالكت نفسي وقلت في قلبي: «هلاّ هلاّ، يا دني!» بعد قليل من الوقت سألني أحد المسؤولين إلى أين أريد أن أذهب. قلت: عند ابنة أخي وهي معلّمة مدرسة في الجنوب. فأرسلوني إلى حيث طلبت.

فهد ط.:

كنت في فرشتي. أنا مريض بالقلب. دخلوا عليّ وسألوني عن اسمي ثم أشاروا عليّ بالتوجه إلى كنيسة السيدة لأكون بأمان تحت حراستهم. ترددت. قال أحدهم: لا تخف! نحن لا نقتل على الهوية ومرادنا أن نحافظ على حياتكم لأننا لا نقدر أن نضبط كل رفاقنا. تعال معنا إلى الكنيسة فتكون بأمان. رحت معهم أنا وامرأتي. في الكنيسة قدموا لنا كولا وسفن اب وسجاير لكني لم أقدر أن أشرب. كنت في حالة اضطراب شديد. ومما أثّر في نفسي كثيرًا مشهد الدامور عمتحترق. في ليلة واحدة مئات المنازل تهب فيها النار دفعة واحدة مثل «قبّيلة عيد الصليب» شو ذنب هالبيوت؟ كثير من أصحابها تقدميون... الدامور بتعطي فوق الألف صوت للائحة جنبلاط في الانتخابات...(١٠٨). أنا إبني داخل في حزب تقدمي وقد أمضى شبابه يناضل في سبيل عقيدته. حرق الدامور

١٠٨) في انتخابات ١٩٦٨ أعطت الدامور للائحة جنبلاط – عزيز عون نحو ١٢٠٠ صوت، وأعطت للائحة شمعون – الغفري نحو ٢٠٠٠ صوت.

لا يشرّف التقدمية. لا الدامور مدينة روما ولا ياسر عرفات نيرون. ليش حرقوا الدامور؟ أمضينا الليل في كنيسة السيدة قاعدين على البنوك. عند الصباح أخذونا إلى شارع صبرا في بيروت الغربيه. عاملونا بإنسانيه. هالجماعة في بقلوبهم رحمة مثل ما في بقلوبنا. لما عرفوا اني مريض، سمحوا لي أن أتصل بإبني وأن أذهب معه إلى محل إقامته.

جميله ن.:

هربنا أنا وأولادي من بيتنا إلى جسر الدامور راكضين تحت الشتا. نحنا ما عندنا سيارات. يا حسرتي على الفقير! فوق الفقر، تعتير... لما وصلنا إلى قصر شمعون في السعديات، قالوا لنا: «لايش هربتوا على كل حال بدكم تموتوا. ارجعوا حاربوا وموتوا شرفا!» يقطع الموت! أنا امرأة بعرف اكوي وأغسل وأطبخ، ما بعرف حارب. أولادي، فنيت عمري وتعبت وشقيت لشفتهم صاروا شباب، لخليهم يروحوا يموتوا كرامة فلان وفلان! ضحينا كثير في سبيل الزعامات، ما زاد شرفنا بشي... شفنا بوسطه خضرا رايحه صوب صيدا، عمشقنا عليها ونفدنا إلى الرميله.

فريد د.:

رزق اللّه على ايام جدي وجدك. جدك كان إذا صار مشكل بين اثنين، ما يخلي النهار يمضي إلا ويكون صالحهم. في مرّة صار معركة ووقع قتيل، ووصلت المسألة إلى الحكومة... حالاً بعث جدك وراء المتخاصمين وجمعهم في بيته وما تركهم يفلّوا إلا بعد ما تصالحوا. قال للي بدو يتشكا: «يا ابني، إذا طربوشك وقع على عتبة المحكمة، ما تنخ لتلمو. في بلدنا مش لازم حدا ينام وبقلبه ضغينه»...

كيف دخلت فينا الحزبيات والغايات والمرامات؟ ما بعرف. ما عاد الشباب يسمعوا للعقّال. صاروا يقولوا لنا: «انتو موضه عتيقه! اللي ما بيوقف بالمتراس، ما له حق يبدي رأي...» يجوا يشوفوا شو صار فينا. كان جدك يحكي لنا عن مهاجر من الدامور وقف على ظهر البابور بعد ما لبس البنطلون الافرنجي ومسك شرواله وصار يبوسه ويقول: «يا أسفنا عليك وعلى ايامك الحلوه! استر ما شفت منا!»

سميح ف.:

لما وصلوا، كنت في بيت عمي. كل اللي كانوا معنا هربوا. بقيت لوحدي أنا وعمتي المريضة. دخل فدائي وصوّب الرشاش لصدري وسألني: «كم فدائي قتلت؟» قلت: «يا عمي، أنا ما بعرف حارب. مش صنعتي الضرب والقتل. شو لي دخل مع الفدائيه؟» قال: «افتح الخزنة! حالاً افتح الخزنة وإلا بطخّك!» في بيت عمي صندوق حديد ما بعرف شو فيه. المفاتيح مع عمي، وعمي ترك البيت قبل بيوم... صارت عمتي تبكي وتترجّا الفدائي وهو مصوب رشاشه عليّ ويتهددني. كان في رأسي شوية عقل وطار. صرت ارجف كلني سوى وصرخت بوجهه: «تفضل! ما في معي إلا هالمفاتيح... (ورميت له مفاتيح خزانتي). بدك تقتلني، اقتلني، مش خايف منك!» لما شافني بهالحالة وعينيّ نافرين من وجهي وعمبرجف كلني سوى برقروقة البيجاما، اجاه الضحك وقال: «يا عيني، يا عيني! ملاّ مساتر!» بعدها أخذونا أنا وعمتي لكنيسة السيدة. ترجيتهم لأرجع جيب حرامي وثيابي. الدنيا برد وشتا. ما قبلوا... في الكنيسة صاروا يروقوها معنا ويقدموا لنا كولا. لا هيك ولا هيك! لا بدنا يحرقوا لنا بيوتنا ولا بدنا يسقونا كولا. ثاني يوم أخذونا إلى صبرا. كنت خايف يعذبوني ويذبحوني. لا. جمعونا في مدرسة وحطونا تحت حراسة وصاروا يقدموا لنا مأكولات. فتحوا لي علبة حمص بطحيني بدون حامض وزيت. نرفزت وقلت للحراس: «يا عمي أنا مش معتاد آكل حمص بدون حامض وزيت!» ضحكوا وراحوا فتشوا لي على حامض وزيت.

جورج عساف (١٤ سنة): (نقلاً عن جريدة السفير – عدد ٢٦-١-٧٦):

كنت مع أبي وأمي وإخوتي الأربعة نائمين عندما سمعنا طرقًا على الباب. خاف أبي فلم يفتح وإذا بالرصاص ينهمر. قتل أبي وأصيبت أمي. جيراننا كانوا عندنا. مات اثنان منهم الأب والأم. في الصباح أخذنا خالي إلى قصر شمعون. نمنا هناك ثم جئنا إلى الدبيه.

رشيد القزي: (نقلاً عن جريدة السفير أيضًا):

حاولنا دائمًا تحييد الدامور ووضع حدّ لاستفزازات البعض... فلم نفلح. فكانت النتيجة ما وصلنا إليه الآن.

مقتل موسى عون وعائلته:

(نقلاً عن «صدى الدامور» عدد ٢٣-٩-٧٦):

... «غادر المسلحون وبرفقتهم داموريان الكنيسة ووصلوا إلى بيت موسى عون الذي يبعد ٥٠ مترًا عن الكنيسة. فوجدوا الباب مغلقًا. فسأل قائد المسلحين الداموريين: «تعرفون هاد؟» أجاب ع.ج.: «نعم». فأمره بقوله: «نادي!» فصاح: «يا عمي موسى! يا عمي! طلاع لبرّا وتعا معنا مع الشباب عالكنيسة». فخرج موسى مع سبعة أشخاص كانوا في داخل البيت (وهم موسى الياس عون وولداه الياس وأنطوان وزوجة أنطوان وأشقاؤها أولاد يوسف منصور عون وعمتهما) خرجوا وأيديهم مرفوعة. فقال لهم المسلح: «أنزلوا أيديكم. مين قال لكم ترفعوها!» وسألهم: «معكم سلاح؟» فأجابوه: «لا». فأمرهم: «اصطفوا هنا». وبينما كانوا يصطفون دخل هو إلى المنزل ثم خرج وبيده رشاشان، وبلحظة ارتد نحو المصطفين ورشهم برشاشه. سقطوا وقتلوا كلهم في الساعة ذاتها.

وهنا قالت زوجة ع.ج. لقائد المسلحين: «حرام عليك ليش عملت هيك؟» فأجابها بنبرة: «ليش يكذبوا؟»...

استشهاد ميشال غريّب وابنه عمّون:

(نقلاً عن «صدى الشوف» عدد ٢٥-١٠-٧٦)

الحادث كما يرويه ج. عيد وهو آخر من تحدث إلى الشهيد قبل اغتياله... قال ميشال: «سأظل أدافع عن الدامور وعن عائلتي وشرفي ولو بقيت وحدي» فسأله ج. عيد: «ما هو سلاحك؟» فأجاب: بعض أكياس رمل وجفت صيد نمرو ١٢. فابتسم جرجي وقال: «هذا انتحار. إنك لا تفكر جديًا بالتصدي لآلاف المسلحين المهاجمين بأكمل وأحدث الأسلحة ومئات المدافع ببندقية صيد؟» أجاب: «بل هذا ما سيصير. أنا معي جفت صيد وابني عمون معه جفت آخر»... جرجي راح مع أهله إلى القبو في منزل اسما الغريب... أما ميشال فذهب إلى بيته في السيارة... في الليل حدثت جلبة قوية وقصف عنيف جدًا بالمدافع... ماذا جرى لميشال؟ كان قد قال لجرجي: «... إذا هاجمونا سأقتل أربعة أو خمسة قبل أن نقتل أنا وإبني. سأقاوم. سأظل أقاوم وحدي ولو قتلت. الموت لذيذ في سبيل الوطن، أنتم إذا استسلمتم تكونون جبناء...» يقول شهود

عيان: «سمعنا طلقة من جفت ميشال وسمعنا صرخة رجل أصيب وبعدها سمعنا دوي قذيفة تنفجر». اقتحم المسلحون متراس ميشال الصغير المصنوع من بضعة أكياس رمل على باب المنزل واعتقلوه مع ابنه وبيد كل منهما جفت صيد. وخاطبوا سائر أفراد العائلة الباقين بقولهم «أنتم روحوا للكنيسه!» فذهب الجميع بمن فيهم زوجة ميشال وولداه وبعد برهة سمع طلقان: واحد قتل ميشال والثاني قتل ابنه عمون. وألقيت جثتاهما[١٠٩] على الطريق قرب منزل الياس نجم الغريب ومنزل الياس نعمه حيث كانت جثة خليل غنيمه أيضًا...

ج. عياط:

(سائق سيارة فلسطيني من مواليد عكا، حائز على الجنسية اللبنانية)

إني أتردد على الدامور منذ ٢٠ سنة، ومنذ ٧ سنين سكنت فيها أنا وشقيقاتي. قبل اقتحام البلدة بنحو شهر، كانت سيارة تمر على الطريق العام قرب بيت الكتائب فأوقفها أحد العناصر غير المنضبطة وأنزل ركابها الخمسة ٣ نساء ورجلان أحدهم فلسطيني خطيب فتاة من حارة الناعمة واقتادهم لجهة فبركة الكبريت وأساء معاملتهم... لما وصل الخبر إلى أحد المسؤولين في حزب الأحرار بادر إلى محل الحادث وفكّ المربوطين وحصل خلاف بينه وبين الجاني فهرب هذا الأخير واختبأ في بيت الكتائب ولما عرف هؤلاء بما فعل، فصلوه عن الحزب. وفي ذات يوم كانت سيارة موز قادمة من صور فأوقفها أحد المسلحين من العناصر غير المنضبطة وسلب من السائق ٢٠٠ ليرة لبنانية وفرّق الموز على بعض المارين ولما عرف المسؤول في حزب الأحرار استاء وتدخل في القضية وأرجع المال المسلوب إلى صاحبه وأعاد إلى السيارة حمولتها من موز الدامور. وكنت أسمع من البعض أن عناصر غير منضبطة أقدمت على خطف بعض الفلسطينيين، إنما كان ذلك يجري بالخفاء دون علم المسؤولين ودون موافقة أهل البلدة. ومن الحوادث التي سمعت بها حادث حصل على جسر الدامور حيث أنزلوا ركاب سيارة عمومية وقتلوا بعضهم ونجا واحد، فثارت نقمة الفلسطينيين في صور وقتلوا ثلاثة من الداموريين العاملين هناك... أما أنا فقد حاولوا مرتين أن ينسفوا الغرفة التي أسكنها مع أني كنت أحمل توصية من الرئيس شمعون وأنا مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك.

---

١٠٩) يقول البعض ان مصير عمون ابن ميشال لا يزال مجهولاً حتى كتابة هذه الأسطر.

قبل اقتحام الدامور بقليل كان يُقيم في حارة الناعمة قائد المنطقة وهو شاب فلسطيني وقد أقدم مع مجموعة من رجاله على خطف ت.ع. على طريق خلده وأتوا به إلى حارة الناعمة. فحصل شجار بين أهل حارة الناعمة والفدائيين. الأهالي يريدون إطلاق سبيل المخطوف والفدائيون يرفضون وبعد أن توسَّط في القضية أشخاص من الدامور لهم صداقات في الحارة، أطلق سبيله وعاد سالمًا. فقام شباب الدامور على أثر ذلك بقطع الطريق وخطفوا بعض المارة. فما كان من أهل الحارة إلا ان قطعوا الطريق بدورهم وخطفوا بعض المارة. فتأزم الوضع وحدث أول هجوم على الدامور من ناحية بعورته قامت به القوات المشتركة فصدّه شباب الدامور وأخذوا من المهاجمين سيارتين جيب على إحداهما مدفع دوشكا وعلى الأخرى رشاش ٥٠٠. فاشتد قصف الدامور بمدافع الهاون وبالصواريخ. وفي إحدى الليالي قام أحد الأهالي وأخذ يقرع جرس الكنيسة حزنًا. وكان ذلك نحو نصف الليل ولا أعرف ما كان القصد من هذه البادرة. فتكهرب الجو وتصاعد القتال وتضاعفت القذائف. وفي الصباح ابتدأ المهاجمون يتقدمون من الجهة الشرقية الشمالية وكانت قوة من المغاوير تحاول التصدي للهجوم في تلك الجبهة لكن بعض المغاوير استاؤوا من كلام بعض الأهالي فقرروا الانسحاب أمام تدفق القوات المهاجمة وصرخوا بالناس: «اهربوا! اهربوا!»... حوالي الساعة الثانية عشرة وصل الفدائيون إلى قرب مستشفى الدامور على صوت: «اللّه أكبر!» وبعد فترة وجيزة ساد السكوت وبدأ اقتحام المنازل وتخريبها. أثناء ذلك كنت مع بعض الداموريين وعددهم نحو ٤٥ مختبئين في الطابق الأسفل من بيت ب.ش. أمضينا ليلتنا في حالة لا توصف من الخوف والقلق. ولما أشرق صباح اليوم التالي سمعنا عند الساعة السادسة وطء أقدام تقترب ثم طلقات نارية ثم صوتًا يصرخ بنا: «سَلِّم تِسْلَم!» حينئذ فتحت الباب وخرجت وعرفتهم بنفسي ورجوتهم أن يكفّوا عن قتل رفاقي لأنهم حموني ودافعوا عني عندما كان بعض الشباب يتهدّدوني ويتهموني بالتواطؤ مع الفدائيين فاستجابوا لطلبي وعاملونا برفق وأخذونا إلى الكنيسة ومنها إلى صبرا. وفيما نحن هناك صدر أمر من الهلال الأحمر بالإفراج عني وعن شقيقاتي...

سمعت أنّ القوات المشتركة التي اقتحمت الدامور كان عددها نحو ٣ آلاف وكان المهاجمون يتوقعون مقاومة أشد عنفًا من التي وجدوها.

الأب منصور لبكي خوري رعية الدامور يتكلم:

(لخصنا وعرّبنا هذه الشهادة عن شريط طويل مسجل باللغة الفرنسية للأب م.ل.)

ابتدأت مأساة الدامور في ٩ كانون الثاني ١٩٧٦. في مثل هذا اليوم تقضي تقاليدنا الدينية بأن يطوف الكاهن على بيوت رعيته ويرشها بالماء المصلاّة. كنت أقوم بواجبي هذا في الحي المسَّمى «حارة الروس» عندما سمعت زخة رصاص تنطلق فجأة من حارة الناعمة. فاتصلت هاتفيًا بمختار الحارة مستفسرًا. أجابني:

– أبونا، لا تشغلوا بالكم. حصل خلاف بين أهل الحارة وبعض الفلسطينيين. لقد خطف هؤلاء أشخاصًا من الدامور وأتوا بهم إلى حارتنا فطلبنا منهم إطلاق سراحهم، فأبوا.

اتصلت بالمختار مرة ثانية وعرضت عليه أن يصار إلى عقد ميثاق عدم تعدّي بين حارة الناعمة والدامور. أجابني:

– أبونا، سأحاول أن أقنع الشباب، لكني لست واثقًا من النجاح.

ولما عدت إلى الهاتف لأعرف الجواب، قال:

– آسف، إن الفلسطينيين يرفضون عرضكم.

في تلك الليلة وصلني الخبر أنّ نحو ١٢ ألف مقاتل أتوا من مختلف النواحي لمحاصرة الدامور. باشرت بالاتصالات مع الرؤساء الروحيين والزمنيين طالبًا أن يعملوا كل ما بوسعهم لفك الحصار ولكن دون جدوى...

سكان الدامور من الطبقة الوسطى. لا هم فقراء ولا هم من أصحاب الملايين. وهم قوم مسالمون. تسعون بالمئة منهم تربطهم صداقات متينة مع جيرانهم الدروز والسنيين وغيرهم. الطبيب الداموري يعتني بالمسلمين والدروز القاطنين في القرى المجاورة كما يعتني بأهل بلدته تمامًا. لذلك لم يكن ليمرَّ في خلد الداموريين أنّهم سيخوضون حربًا طائفية بهذه البشاعة و لم يكونوا مستعدين لها...

الهجوم الأول استهدف «حارة الروس» وكان شرسًا. فقد ذبحت عائلات بكاملها... ثم قام المحاصرون بهجوم أشد ضراوة. في ذلك الحين كنت موجودًا في كنيسة مار الياس حيث تجمَّع نحو خمسماية من أهالي الدامور فروا ليلاً من بيوتهم

ولجأوا إلى الكنيسة. وكنا نشعر أنّ حالتنا أصبحت يائسة وأنّ مصيرنا الموت. شرعت أشجع رعيتي وأعدّهم لملاقاة ربهم. قلت لهم:

– إن الاستشهاد منّة من اللّه تعالى وانه سبحانه سيعطينا النعمة الكافية لتقبُّل الموت بطمأنينة وسرور. وأضفت: بعد قليل سنلتقي، إنشاء اللّه، أنا وأنتم كلنا على طريق الجنة...

وكان أحد الحضور صاحب نكتة فاستدرك قائلاً:

– أخشى أن يكون شباب حارة الناعمة عاملين لنا حاجز هناك...

قلت:

– لا خوف، لأنّ طريق الشهداء هي دائمًا سالكة وآمنة. والآن قبل أن أعطيكم الحلّة الأخيرة، أطلب منكم شيئًا مهمًا وهو أن تغفروا سلفًا للذين سيقتلونكم. هكذا علمنا السيد المسيح أن نفعل.

فأجابوا:

– حسنًا أبونا، لقد غفرنا.

سألتهم:

– أأنتم خائفون من الموت؟

أجابوا:

– لا!

وأخذنا نرتِّل:

«توكلنا على الله   وهـو ملجـانـا
توكلنـا على الله   لا نخاف السوء!»

دقائق انتظار... ثم علت الصرخة: «اهربوا! اهربوا! انجوا بأرواحكم!» حينئذ ساد الرعب الجميع فأخليت الكنيسة وصارت الناس تتراكض نحو البحر لجهة السعديات...

هجر الداموريون بيوتهم دون أن يحملوا معهم شيئًا من أمتعتهم، حتى ولا بطاقات هويتهم...

أما الضحايا فعددهم حسب تقديرات الصليب الأحمر يتراوح ما بين ٥٨٠ و٦٠٠. لكن القتلى الذين سُجِّلت أسماؤهم بناء لتصريحات ذويهم فعددهم لا يتجاوز الماية وثلاثين. بيوت الدامور كلها أحرقت أو دُمِّرت. ومما يثير الدهشة أنّ عددًا كبيرًا من الضحايا، نحو ٤٥ بالماية، ينتمون إلى حزب كمال جنبلاط. في الدامور قسم لا بأس به من الأهالي يصوتون أثناء الانتخابات للائحة جنبلاط وفاءً للدكتور عزيز عون الذي له عليهم ايد بيضاء.

كلنا نتساءل: لماذا؟ لماذا اقتحموا الدامور وعملوا على حرقها وتدميرها بمثل هذه الضراوة؟ شخصيًا أنا أعتقد أن ثمّة مؤامرة على لبنان المسيحي خططها الشيوعيون بقصد قلب النظام فتحالف معهم المسلمون وحركة المحرومين والمقاومة الفلسطينية. المتحالفون لهم أهداف متباينة ومتناقضة لكنهم اتفقوا على السير معًا على أن يفترقوا بعد حين... وأعتقد أيضًا أنّ ثمة مخطّطا لإعطاء لبنان وطنًا بديلاً للفلسطينيين، لكن «كشّافة بيار الجميل» كما كان أحد السفراء يسمي الكتائب استطاعوا بصمودهم أن يفسدوا الخطة...

أما الدامور بوجه خاص فقد اختاروها ليسجلوا باقتحامها نصرًا لامعًا بعد سلسلة من النكسات... وقد زعموا أنهم باحتلال الدامور وتدميرها يردون على احتلال الكرنتينا والمسلخ من قِبَل الكتائب، مع أنّ المقارنة بين الدامور والكرنتينا هي بنظري خاطئة، فالكرنتينا لا يسكنها إلا غرباء معظمهم فرّوا من وجه العدالة واغتصبوا أرض الغير... ومنهم القنّاصة الذين لا عمل لهم سوى إطلاق الرصاص على المارة. فهل تجوز المقارنة ما بين هؤلاء الخارجين على القانون وبين أهل الدامور!

الرئيس كميل شمعون يتحدث عن معركة الدامور:

في كتابه الصادر باللغة الفرنسية تحت عنوان «أزمة في لبنان» يروي الرئيس شمعون (من الصفحة ١٣ إلى الصفحة ٢٩)

المرحلة الحاسمة من معركة الدامور ابتداءً من يوم الأربعاء ١٤ كانون الثاني ١٩٧٦ لغاية الثلاثاء ٢٠. نستخلص من هذه الصفحات المعلومات التالية:

يقدّر الرئيس عدد المقاتلين الذين هاجموا الدامور والجيه بنحو ١٥٠٠، منهم ١٠٠٠ على جبهة الدامور و٥٠٠ على جبهة الجيه أما المدافعون عن الدامور فكان عددهم نحو ١٥٠ ويقول الرئيس انهم كانوا يفتقرون «إلى روح التعاون الذي يستمد منه المحاربون، في حال وجوده، قوّتهم الحقيقية». (صفحة ١٣) ويقدر عدد الهواوين من عيار ١٢م و٨٢م التي كانت تصب حممها على البلدة بثمانية على الأقل.

الخميس ١٥ ك٢ ليلاً شنّ الفلسطينيون غارة على «حارة الروس» حيث مارسوا «لعبتهم المعتادة من ذبح وحرق وتخريب» ولما أشرق الصباح توجه وفد يمثل المدافعين عن الدامور إلى السعديات. يقول الرئيس شمعون: «وجدت معنوياتهم مزعزعة، فعملت على تشديد عزائمهم محركًا فيهم الشعور بالواجب وبما يمليه الشرف فوعدوا باستئناف القتال وبالرغم من تفوق العدو عدّة وعددًا تمكنوا من استرداد القسم الأكبر من الحي المحتل» (ص ١٥ و١٦).

لكن الحالة أخذت تسوء، فالعدو عدوّان: الفلسطيني المتفوق عُدة وعددًا ورداءة الطقس التي حملت البحر إلى أقصى درجة من الهياج وقطعت الطريق الوحيد الذي كان بالإمكان أن تأتي منه الإمدادات. الذخيرة بدأت تشحّ «طوال التسعة أشهر التي دار فيها القتال، كانت ميليشيات المنطقة كلها تغرف من مستودعاتنا. مقاتلو الدامور والجيه أنفقوا تقريبًا كل ما تبقى من الذخيرة و لم يعد بحوزتي سوى كمية ضئيلة أحتاط بها للدفاع عن السعديات». (ص ٢٥)

أما عن مغاوير الجيش الذين أتوا لنجدة المحاصَرين فكتب الرئيس انهم تجمعوا حول مدافعهم دون أن يستعملوها، (ص ٢٦)

ثم يصف اقتحام الدامور بالأسطر التالية: «الاثنين ١٩ ك٢ (تابع): استولى الرعب على أهالي الدامور والجيه كافة فأخذوا يتدفقون إلى السعديات متكدسين في البيت وفي الحدائق المحيطة به، ومما زاد في خطورة الموقف أنهم كلهم تقريبًا جاؤوا بسياراتهم فتعرقل السير وتعرضنا إلى خطر الحرائق في حال انفجار إحدى القذائف على مقربة من خزانات البنزين...»

(ليلاً) الدامور تحترق. «مئات الحرائق تضيء الظلام بينما الفلسطينيون يطلقون الرصاص الخطاط بغزارة معبّرين عن ابتهاجهم بالنصر».

وفي بعبدا وصل الرئيس بالطوّافة ليبحث مع كبار المسؤولين عملية إغاثة اللاجئين إلى السعديات، قابل العماد نصرالله رئيس الأركان وعاتبه على عدم تدخل الجيش لإنقاذ الدامور والجيه، فأجابه العماد رافعًا يديه نحو السماء: « لم يعد لنا جيش!...» ؛ص ٢٧).

الخلاصة

حزيران ١٩٧٧

هل من فصل أخير لهذه المأساة؟ صيف آخر يطل علينا وقضية الدامور تُراوح مكانها. مثل أبطال الدراما التقليدية، نتأرجح بين فترة أمل وفترة يأس، بين تصريح يبعث الأمل وآخر يقطع الرجاء. نلتهم الصحف يوميًا لعلّنا نقع على خبر يزفّ لنا البشرى. قرأنا في الأسبوع الفائت ان النائب حسين منصور قابل رئيس الجمهورية بخصوص مهجّري حوش الأمراء وتعلبايا (هناك من يحكي بقضيتهم! «نيّالهم!») وصرح للصحافيين بعد المقابلة:

«الرئيس مطمئن وقد أكد أنّ سبحة عودة المهجرين ستكرّ بعد أن تحل قضية مهجري الدامور»[١١٠]. وأشيع على أثر ذلك أن عودة الداموريين ستتم خلال شهر حزيران. أسبوع، أسبوعان، ثلاثة مضت ونحن بالانتظار والأمل يلطِّف أوجاعنا، إلى أن طلعت علينا الصحيفة ذاتها لتقول:

«... في وقت لاحق وصل إلى بعبدا محافظ الشمال وقال في تصريح بعد مغادرته القصر انّ الحل الجذري لقضية المهجرين سيكون من ضمن الحل العام، لأنّ هذه القضية لا يمكن أن تعالج على صعيد إقليمي...»[١١١] ثم تمر الأيام وتكرّ سبحة الأحداث الروتينية، وسبحتنا لا تكر. فيعود التعتيم. سكوت... سكوت مطبق... تكهنات هاربة، همسات حائرة وليلنا لا آخر له، ولا لاشتياقنا إلى رائحة تربة الدامور. «ربما بعد حل قضية الجنوب... أو بعد زيارة بغين لواشنطن أو بعد إنجاز مخيم البيسرية، ربما بعد الحل السياسي... أو بعد مؤتمر جنيف... أو عند لقاء الرئيس كارتر وليونيد بريجنيف...»

ماذا يضرّ الداموريين لو ظلوا قابعين في الظلمة البرانية سنة أخرى أو سنتين أو أكثر؟ ألا يوجد في العالم من هم أتعس منهم؟

هكذا نتأرجح، وكلما لاح بريق أمل، تتولى يد خفية الزجّ بنا في بحر من اليأس أعمق فأعمق. دكاترة السياسة يوزعون علينا في كل صباح ومساء، يوزعون علينا وعلى

---

١١٠) الأنوار، عدد ١٩٧٧/٥/١٤.
١١١) الأنوار، عدد ١٩٧٧/٦/١٢.

الجنوبيين وعلى سائر المنكوبين المشردين وصفات مجانية كتبت عليها كلمة واحدة: «الصبر!» الظاهر أن هذا النوع من العلل لا ينفع فيه إلا هذا الدواء... «تحلوا بالصبر يا مهجري الدامور!» ولكن إلى متى، يا دكتور، إلى متى وقد تحولنا إلى دملة ملتهبة تلتمس مبضعًا جريئًا. الموت لا يصبر علينا. أين ندفن موتانا، يا دكتور؟ أتدلّنا على حفرة اسمها الصبر؟

دخلت المقهى بالقرب من قصر البحر وجلست في زاويتي المفضلة أقلّب الصحف. أحب هذه الزاوية، أحب صيدا وطابعها الخاص وهذا المقهى تجاه قصر البحر حيث أتنشق مع لهاث الموج ورائحة الأعشاب البحرية نفحات من الغَور، من غَور الماضي الفينيقي، عندما كانت صيدون تشيد الهياكل لدامور كي يحمي ظهرها ويولّيها سيادة البحار. أيعود دامور متخذًا من اللهيب حياة جديدة؟ والسنديانة التي ترمز إلى ديمومته ألا تزال خضراء أم قُضيَ على شموخها؟؟ طلبت فنجان قهوة، قهوة الصبر مع قليل من سُكّر الأمل. ماذا سيكون الفصل التابع؟ عدت أقلّب الجريدة فوقعت على هذه الأسطر: «في تقدير المصادر الحكومية ان عدد الأطفال المشوهين (من جراء حرب السنتين) ٨ آلاف، منهم ١٥ بالمئة دون الرابعة عشرة، وقد تلقى المبتورو الأطراف إلى جانب المشلولين، سواءَ المصابون بشلل نصفي أو بشلل نصف سفلي، المُقعدين فوق سرير أو كرسي متحرك، بعد أن تحطم وجودهم بسبب طلقة رصاص أو انفجار قنبلة، (تلقوا) مساعدة من الخارج»[١١٢]. قربان أطفال لبنان وقربان الدامور على مذبح أي بعل قدّما؟ عاد السؤال يطرح نفسه. لصالح أي دولة أو أي نظام أو أية قضية؟ تخريب وطن—ملجأ مثل لبنان وحرق بلدة مثل الدامور وتهجير السكان الآمنين وتحطيم وجود ٨ آلاف طفل. ومن تعذيب الأطفال وتشريد السكان وتحطيم الأوطان استنباط ورقة مساومة بين أيدي السياسيين، أليس في ذلك إعلان أكبر افلاسة شهدها التاريخ، إفلاس الأنظمة كلها والايديولوجيات كلها، إفلاس العقائد والأخلاقيات وعلوم السياسة: إفلاسة كاملة شاملة؟

أجل، إنها البرهان الساطع على أن الأنظمة السائدة كلها لم يعد بإمكانها أن تستمر إلا إذا تطورت من الفظيع إلى الأفظع. من الذي قال ان عالمنا الهرم، وحضارتنا المحتضرة واقتصادنا المتدهور لم تعد بحاجة لا إلى أنظمة مثالية ولا إلى دساتير جديدة ولا إلى علماء

١١٢) الأنوار، عدد ١٤/٥/١٩٧٧.

ولا إلى دبلوماسيين ماهرين ولا إلى رجال دولة عباقرة، إنها بحاجة إلى متصوفين، إلى قديسين يحملون في صدورهم آلام أمتهم.

على بعد بضعة أميال من هنا، كان ابن نجّار ناصري يحلم مثلنا ويطرح الأسئلة. كان مثلنا يتمعّن بهذا المشروع الفاشل الذي يسمونه «الحياة» حيث كل شريك مساهم يفني عمره سعيًا وراء الربح، وراء إنجاح المشروع والموت يتربص به وبشركائه، ومشاريعه تذهب معه أدراج الرياح، كان يطرح على صعيد الفرد السؤال الملحّ: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح العالم وخسر نفسه!» هذا هو السؤال الذي نطرحه اليوم على صعيد الدول العملاقة فاما أن تكون الأنسنة تضامنًا وتكافلاً بين جميع الناس في سبيل السمو بالإنسان واما أن تتحول إلى بربرية وانحدار إلى ما دون الحيوانية والهمجية...: ماذا ينفع الأنظمة إذا ربحت هذه المنطقة بأسرها وخسرت لبنان؟ وماذا ينفع العالم إذا قهر الأفلاك وغزا الكواكب وسخّر التكنولوجيا لمطامحه إذا ترك في زاوية من الزوايا قرية على الهامش إسمها الدامور يصلب فيها الإنسان ويموت وفي قلبه حسرة لكونه غير مطمئن إلى الحفرة التي سيرمون فيها جثته؟

والقضية الفلسطينية في أية حفرة مبتكرة سيحاولون أن يزجّوا بها؟ القضية لم تدفن في الدامور ولن تدفن مهما ابتكروا لدفنها من حفر، إنها وجه من أوجه الصراع الأبدي: صراع العنف مع الحقيقة، هذا الصراع الذي عجزت الأنظمة كلها عن تلافيه وسوف تتلف فيه. «عجزوا عن جعل القوة في خدمة العدالة، فجعلوا العدل في خدمة القوة»[١١٣]. القضية الفلسطينية لن تدفن مهما نصبوا لها من أشراك ومهما قدموا لدفنها من ذبائح لأنها وجه من أوجه الصراع الأبدي. فلو بقي فلسطيني واحد قيد الحياة سيظل يصرخ في وجه العالم: «أنا أرفض أن أذوب في محيطي! أريد أن أساهم بازدهاره، لا أريد أن أذوب فيه!» المهم أن لا يدفن الفلسطينيون قضيتهم بأيديهم. لقد قدمت الثورة الفلسطينية آلاف الشهداء والفلسطينيون لا يزالون يفتشون عن الطريق النافذ. يكاد لا يمر أسبوع إلا ونسمع بوقوع صدام دام ما بين المنظمات. من أين الطريق؟ أتمر بجونيه عبر الماركسية؟ أتمر بالدامور عبر القومية العربية؟ أم بحقول النفط عبر الحلف الأطلسي؟ من سيجترح المعجزة؟ من سيقول للفلسطينيين بصراحة وإخلاص: «ماذا ينفع الإنسان إذا ربح وطنًا ومنزلاً وخسر الأخوة والصداقة بين الأهل وبين الجار والجار وبين الضيف

١١٣) باسكال Pascal

والمضيف؟» من سيجترح المعجزة ويوفّق بين الفلسطيني والفلسطيني ثم بينه وبين اللبناني؟ من سيبشرنا بأن قربان الدامور وقربان أطفال لبنان وقربان الجنوب لن تذهب أدراج الرياح كسائر القرابين وأن ذبيحة السنتين قد نجّت العالم من كارثة كونية ثالثة واستمطرت على الشرق الأوسط سلام الإرادات الطيبة؟ هل من ظل درويش متصوف ما بين مكة المكرمة والقدس الشريف؟ أوهام... أوهام.. العالم يدور في دوامة العنف، يدور على محور التخادع والتلاعب والمراوغة وعرض العضلات، والناس تلهو ورجال السياسة يقدمون لهم المسرحيات المثيرة: من الفظيع إلى الأفظع.. من الفظيع إلى الأفظع دائمًا... من آسيا إلى افريقيا، من لبنان إلى الحبشة... منذ عهد الرومان والجماهير تصرخ بالقياصرة: Panem et circenses «خبزًا وألعاب سيرك». هذا كل ما يبتغون وتسليتهم المفضلة مشاهدة صراع الجبابرة وإراقة الدماء. لقد خف اهتمام العالم بلبنان منذ خفت فيه المشاهد المثيرة، تحولت الأنظار عن مأساته منذ أغلقوا فيه مسرح الفظاعات. من يا ترى يحظى الآن بتسلية الجماهير؟ انتبه! انتبه! الدول تترقب الآن باهتمام بالغ إقلاع طائرة مجهولة. بريطانيا العظمى تحتفل بيوبيل الملكة وثمة طائرة عجيبة غريبة يقولون انها تحوّم فوق بحر المانش باتجاه الجزر البريطانية وأعين العالم جاحظة. أين ستهبط الطائرة؟ الكبار والصغار، رجال العامة ورجال الدولة كلهم يراقبون ويتساءلون: هل الماريشال[١١٤] على ظهرها؟ هل يقتحم المؤتمر، وماذا ستكون ردود الفعل؟ مشاكل لبنان لم تعد تثير الحماس. عذاب المهجرين في أوطانهم لا يغير شيئًا في طعم فنجان الشاي الذي يحتسيه العظماء وهم يتداولون في شؤون العالم. أهذا كل ما يلزم لتسيير الأمور؟ عصا ماريشال وتدجيل داعية؟؟

وفيما أنا غائص في تأملاتي، سمعت صوتًا يناديني:

– قهوتك بردت، يا أستاذ. أتريد أن أسخنها لك.

قلت:

– مع الشكر، يا محمود، أنا لا أحب القهوة باردة...

وإذا بطفلين (لهجتهما فلسطينية) يدخلان من الباب الغربي ويجرّان كلبًا صغيرًا، «جرو كلب برسم البيع». اقتربا من طاولة جاري وأخذا يساومانه على الصفقة:

١١٤) الماريشال عيدي أمين عندما كان يهدّد بريطانيا العظمى...

– هات ليرة، هات نصف، والجرو لك.

– لا. الكلب وسخ وبشع. عشرة قروش فقط.

– طرّيها شويه يا معلم... هات ربع وخذه.

نفسي تحدثني بأن أتدخل وأزايد... ولكن إلى أين أحمل هذا الجرو المسكين وأنا مشرد مثله. تذكرت كلبتي. ماذا حل «بموشى»؟ التهمتها النيران يوم اقتحام الدامور. أنهت حياتها مع نهاية البيت الذي كرست حياتها لحراسته، مع نهاية الدامور التي أحبتها وعاشت من خيراتها. أما كان الأجدر بنا نحن أيضًا أن ننهي حياتنا مع نهاية الأشياء التي أحببناها؟

جاءني محمود بفنجان القهوة بعد أن سخنه. قهوة الصبر لا تُشرب باردة... قهوة الصبر محلاّة بقليل من سكّر الأمل: «سُبحة المهجرين ستكرّ.. لا بد أن تكر.. الرئيس مطمئن»... عادت ابتسامة الشيخ المحتضر ترتسم في مخيلتي، تركته في الدير ما بين الحياة والموت. عساه يتغلب على الموت إلى أن تتحقق أمنيته الأخيرة. عادت ابتسامته الكئيبة إلى ذاكرتي وعاد معها صدى أبيات لجلال الدين الرومي طالما سمعته يرددها:

«غريب دخل بيتي دون استئذان...

أحرق كل شيء وأدمى قلبي...

أجبرني على أن أبقى من المساء إلى الصباح سجينًا في بيتي الملتهب...

أشاهد كل جنى حياتي يتلاشى طعمًا للنار...

ولما وقفت على العتبة مودعًا، منتحبًا...

بادرني بسؤال لا يزال صداه يحزّ في قلبي:

– قل لي من منا أشد لوعة وتعاسة:

أأنا أم أنت؟».

الفهرست

صدر للمؤلف

١ – باللغة الفرنسية:

– عطور في الظل، شعر.

– آداب اللغة الفرنسية، ٥ أجزاء (بالاشتراك مع الأستاذين أنطوان شيخاني وشارل بشاره.)

٢ – باللغة العربية:

– الحلاّج، أو وضوء الدم.

– عمر بن الفارض من خلال شعره.

– «هذا الوجود الممزق».

– دامور من أنتِ؟

– حتى الرمق الأخير (مخطوطة)

– «جنوب» (مجموعة شعرية)

مَن هو ميشال فريد غريّب؟

من مواليد الدامور، لبنان، ١٩١٢. تلقّى دروسه الثانوية في جامعة القدّيس يوسف، بيروت، نال بعدها شهادة الحقوق، لكنه أعرض عن فنّ المحاماة لينصرف إلى فن التعليم الذي مارسَهُ نحو عِقدَين مِن السنين، في الكلية البطريركية، بيروت، حيث اضطلع بتدريس الأدب الفَرنسي لصفوف البكالوريا.

في الخامسة والعشرين من العمر، أصدر مجموعة شِعر باللغة الفرنسية: «عطور في الظِل». أتبعَها بعد حين، مؤلَّفه الكبير: «تاريخ آداب اللغة الفرنسية» في خمسة أجزاء، شاركه في تأليفه اثنان من زملائه: أنطوان شيخاني وشارل بشاره. ثم تحوّل عن الكتابة بالفرنسية حين استهواه درس المتصوّفين المَشارقة والتعمُّق في تحليل شخصياتهم وبَسْط أحوالهم. وما لبث حتى نشرَ كتاب «الحلاّج أو وضوء الدم» باللغة العربية، عرض فيه سيرة هذا المتصوّف الفارسي المشهور مع نماذج محلّلة من شعره. ثم أصدر دراسة في تصوّف ابن الفارض وشِعره.

إلى الدراسات العلمية التي أشرنا إليها، أضاف كتُبًا عبَّر فيها عن وَعيه الاجتماعي واهتمامه بشؤون وطنه. فأصدر سنة ١٩٧٠ كتاب «هذا الكَون الممزَّق»، عالج فيه القضيّة الفلسطينية من وجهة نظر موضوعية، ثم في ١٩٧٥، كتابه في تاريخ الدامور: «دامور مَن أنتِ؟»، عرض فيه تاريخ هذه البلدة، واصفًا أحوالها وتطوُّرها ومعاناتها منذ نشوئها حتى نكبتها سنة ١٩٧٦.

في سنة ١٩٧٨ نشر باللغة الفرنسية مجموعة شعرية عنوانها «إلى لبنان في مِحنته». وترك مخطوطة في اللغة العربية لدراسةٍ عنوانها «حتى الرمَق الأخير». عالجَ فيها بصدقٍ وبُعد نظر بعض قضايا بلاده، مُبديًا رأيه الشخصي في هذا المضمار.

تُوفّي في أيار ١٩٩٦.

تمّ طبع هذا الكتاب
على نفقة روز غريّب.
يُرصد ريعه لنشر كتُب أخرى لمؤلّفه.

طبعة ثانية
مزيدة ومنقّحة
٢٠٠٠


G 427 d2
c.1